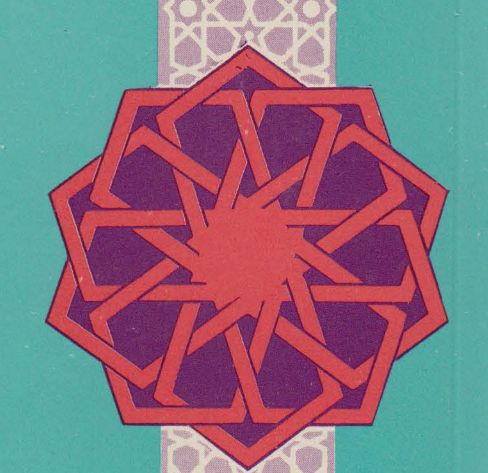
لقاء مع الأبرار

«٥»



الزعيم الأكبر

آية الله البروجردي

تأليف عبّاس العبيري

ترجمة كمال السيّد



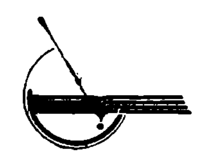
مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الزعيم الأكبر
آية اللّٰه
البروجردي

تأليف عبّاس العبيري

ترجمة كمال السيّد



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء ـ مؤسسة أنصاريان
ص . ب ١٨٧ ـ هاتف ٢١٧٤٤

اسم الكتاب :	الزعيم الأكبر آية اللّٰه البروجردي
المؤلف :	عبّاس العبيري
المترجم :	كمال السيّد
صفّ واخراج :	"افتخاري" للخدمات الثقافية ٦١٩٤٠٣
المطبعة :	صدر
الطبعة الاولى :	١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م
الناشر :	مؤسسة أنصاريان
عدد المطبوع :	٣٠٠٠

المحتويات

الفصل الأوّل (أيام البداية)

الفصل الثاني (السفر الأخضر)

الفصل الثالث (سنوات الشتات)

الفصل الرابع (الطلوع الخالد)

الفصل الخامس (الرحيل)

كلمة الناشر

عديدة هى الطلبات التي تلقّتها مؤسسة أنصاريان سواء عبر الهـاتف أم خلال رسائل القرّاء الكرام، وكلّها كانت تدور حول كتب تتحدث عن حياة العلماء من الذين كان لهم دور مشرق في عالم الفكر و دنـيا العـلوم، وقـد عكفت المـؤسسة عـلىٰ دراسـة المـوضوع بـاهتمام، اسـتجابةً للـرغبات المخلصة المتعطشة للثقافة الإسلامية ورموزها.

واذ تقدم «أنصاريان» سلسلة ـ لقاء مع الأبرار ـ فإنّها تـتمنىٰ أن تـلقىٰ الرضا والقبول من لدن جميع القرّاء الكرام، والله الموفّق.

مؤسسة أنصاريان

تمهيد

يقوم الهجوم الثقافي علىٰ دعامتين؛ الأولى: تحقير الثقافة الأصلية، والثانية: التهويل للثقافة البديلة والغريبة في نفس الوقت. ومن خلال هذا الاستلاب الثقافي واحتقار الثقافة العريقة يشعر الشعب بحالة من الصغار تجاه الآخرين، غافلا عن ثقافته وما تحويه من الكنوز الثرّة، مستجدياً الغرباء، عارضاً حضارته وتمدّنه بثمن بخس.

ولقد عمل النظام البهلوي البائد علىٰ تكريس هذه السياسة في التعامل مع الغرب كاله للحضارة والمدنية والفن بل وحتىٰ الأخلاق والدين، وطرح الشرق باعتباره مثالاً للوحشية، والتخلف، وفي أحسن الأحوال: العالم الثالث عالم الدول النامية؛ ولقد نجحت تلك السياسات الشيطانية إلىٰ حدّما وأصبح الغرب في نظر الكثيرين ـ خاصة الشباب ـ يمثّل العالم الحرّ المنافح عن حقوق الإنسان والمدافع عن الديمقراطية والحرّية.

ولكن وكما يقال فإنّ الشمس لا تبقىٰ خلف الغيوم إلىٰ الأبد، وبدت الحقائق واضحة وبدأ عهد الصحوة الإسلامية.. العهد الذي يتّسم بعودة الجيل الحاضر إلىٰ فطرته وقرآنه وعقيدته ورموزه.

وبالرغم من هذه الاشراقة التي تبشر بالخير الوفير فإنّ حالة الاستلاب الفكري وفي كثير من المجالات الحساسة ماتزال تعاني ذيول التأثيرات الغربية.

فما تزال شهادات الغرب تخطف أبصارنا، ومايزال الدواء الذي لا يحمل اسماً غربياً طناناً، عديم التأثير والفائدة، ومايزال الكثير من مظاهر الثقافة الغربية متغلغلاً بل ومتجذّراً في تربتنا، ومايزال الغرب يختار لنا الزي الذى نلبسه، ويعيّن نوع المداليات التي تمنح كجوائز للفائزين، وننتظر منه حتىٰ الجوائز الأدبية التي يسيل لها لعاب الكثيرين. ولكن هل من الصحيح أن نعدّ الغرب مثالاً؟ الغرب الذي ظهر علىٰ حقيقته بشعاراته الجوفاء.. وبدعاواه الفارغة في الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لماذا هذا الشعور بالنقص تجاه جلاّدي القرن الخامس عشر الهجري؟!

فالغرب الذي يمنح جوائزه «الأدبية» إلىٰ عديمي «الأدب» من أمثال سلمان رشدي، في الوقت الذي يصدّر أوامره بحرمان الطلبة المسلمين من الإشتراك فى أولمبياد الفيزياء، مازلنا ننظر إليه كمثال، بالرغم من تمييزه العنصري المقرف.

ان علىٰ العالم الاسلامي أن يسعىٰ بجدّ إلىٰ تشكيل «نظام دولي إسلامي» وأن يقطع كل آماله من شعارات الغرب في الديمقراطية والحرّية والدفاع

عن حقوق الإنسان.

وهل هناك أمل ونحن نشهد ماجرىٰ ويجري في الأرض الإسلامية في «البوسنة والهرسك» و «الجزائر» و «فلسطين»؟ وليعلم كل من يهمه أمر المسلمين أنه لا ملجأ إلاّ في العودة إلىٰ أحضان القرآن وظلاله الوارفة.

و «**لقاء مع الأبرار**» خطوة في الطريق ـ طريق العودة الىٰ الذات من خلال الإشارة إلىٰ نجوم الفكر الإسلامي.. اولئك العمالقة الكبار الذين تضيع فى عوالمهم وآفاقهم الرحبة زعماء العقائد الأخرىٰ ومفكروها.

ان أشدّ مايرهب الغرب ويرعبه، هو عودة الأمّة الىٰ هوّيتها.. إلىٰ رموزها.. إلى اولئك الذين مهّدوا من خلال جهودهم المتظافرة طريق الإسلام اللاحب.

ولقد أخذت «**لقاء مع الأبرار**» عهداً علىٰ استكشاف معالم سبعين كوكباً مضيئاً في سماء الفكر الإسلامي، وتقديمهم معالم منيرة في طريق البناء.. بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

قم ـ مؤسسة باقر العلوم للبحوث

مقدمة المترجم

عاش البروجردي في زمن عصيب ورأى بأمّ عينيه بلاده يجتاحها الاجانب من الجنوب والشمال وهي تغطّ في نومٍ عميق وشاهد المصير المأساوي لثائر كبير قاد مقاومة عنيفة في غابات الشمال ضد التدخل الاجنبي ثم لقي مصرعه وحيداً وسط الثلوج[1]، فعادت الامة الىٰ سباتها من جديد.

واعقب تلك الفترة ظهور الحكم البهلوي ليعبّر عن الحالة الجديدة في اتساع النفوذ الاجنبي وتغلغله في ادارة البلاد.

وفي مقابل ذلك شهدت ايران ظهور شخصيتين قويتين كان لهما الاثر الهام في مستقبل البلاد بالرغم من التباين الكبير في مواقف كل منهما؛ هما آية اللّٰه الكاشاني وآية اللّٰه البروجردي.

وقد كانت شخصية الكاشاني صدامية الىٰ حدّ كبير ترفض بشدّة كل

---

(١) ميرزا كوچك‌خان استشهد سنة ١٩٢١ م.

اشكال السكوت تجاه الممارسات المنافية للاسلام عقيدة وحياة. وكان يرىٰ الدين جوهر السياسة والسياسة جوهر الدين، وقد شارك اثناء وجوده في العراق في اشعال حرب العصابات ضد الانكليز، وعاد الىٰ ايران بعد صدور حكم الاعدام بحقه.

فيما يقف آية اللّٰه البروجردي في الجانب الآخر، اذ كان يرىٰ عدم التدخل في السياسة منهجاً ثابتاً له، انطلاقاً من مبرّرات عديدة اهمها أن الأمّة لم تهضم ـ بعد ـ فكرة اعتبار الاسلام ديناً سياسته عبادة وعبادته سياسة، وكانت تنظر بتحفظ مشوب بالشك الىٰ عالم الدين الذي يتدخل في «السياسة» كما حدث للكاشاني ـ رحمه اللّٰه ـ الذي بقي وحيداً في الساحة الىٰ حدّ ما.

كما أن محاولة اضعاف نظام الحكم من خلال مواجهته سوف يفتح الطريق أمام الشيوعيين، ومن ورائهم الروس الطامعون، وقد يعمد الانكليز الىٰ اجراء بعض لعبهم السياسية الماكرة فتتكرر ظاهرة أتاتورك في ايران[1]، وبالتالي التحاق البلاد بالقاطرة التركية المتجهة صوب الغرب. واذن فان مساندة الحكم في بعض الاحيان سوف يحفظ البلاد من خطر الانهيار.

علىٰ ان ذلك لا يعني أن «الزعيم الاكبر» كان يقف مكتوف الايدي ازاء

---

(١) هناك مؤشران حول محاولة تقليد تركيا واقصاء ايران عن ثقافتها الاصيلة؛ الأول: منع الحجاب الذى نجم عنه مضاعفات خطيرة، والثاني محاولة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية.

الممارسات الخطيرة التي حاولت الحكومة تمريرها، فقد تدخل (رضوان اللّٰه عليه) ومنع محاكمة الكاشاني واحبط مؤامرة استبدال الحروف العربية باللاتينية، ووقف أمام مشاريع مادعي ـ في حينه ـ بالاصلاح الزراعي والتي تذرعت الحكومة وقتها وفي محاولة لاقناعه بأنها قد نفِّذت لدىٰ «الجيران». وقد ردّ البروجردي وقتها بحزم قائلاً: «ان جيراننا ايضاً قد طووا ـ ومنذ مدّة ـ بساط الملكية، واذا كانت هناك نية في اجراء الاصلاحات فعليكم أن تبدأوا من الملكية».

وهو ردّ افزع الحكومة الشاهنشاهية واجبرها علىٰ الانسحاب وبقيت تنظر الىٰ البروجردي بحذر، ولم تخفِ ارتياحها البالغ لدىٰ اعلان نبأ رحيله عن الدنيا، فسعت الىٰ نقل المرجعية الىٰ خارج البلاد لاضعاف النفوذ الديني في الداخل ومن ثم التفرغ لتنفيذ بعض مشاريعها الخطيرة بعد غياب العملاقين[1].

كمال السيد

---

(١) انتقل آية اللّٰه البروجردي الىٰ الرفيق الاعلىٰ في آذار عام ١٩٦١ م واعقبه رحيل آية اللّٰه الكاشاني في آذار عام ١٩٦٢.

الفصل الأوّل

أيام البداية

كلٌّ مُيسّر لعمله

غرفة الدراسة الكبيرة برفوفها المتعددة، حيث يرصف التلاميذ دفاترهم عليها، والضجة التي يحدثها الصغار في باحة «المكتب»[1] قد ايقظت غريزة التعلّم في نفس «حسين»؛ الذي يضع قدميه لأول مرّة في منزل «الملاّ محمد رضا نهاده»، كان يرتدي قميصاً مخطّطاً وسروالاً أسود.

راح الصبي يتفحّص غرفة الدرس بعينين متأملتين. تـوقّف بـصره فـي أعلىٰ الغرفة حيث توجد صورة مـعلّقة أثـارت انـتباه الصـبيّ، لم يسـتطع «حسين» أن يحوّل عينيه عن الرجل بقلنسوته البيضاء وعينيه الواسـعتين وشاربه الطويل وأُذنيه غير العاديتين ؛ وهكـذا ظـلّ الصـبي مشـدوداً الىٰ الصورة. في الأثناء دخل الأستاذ بنظاراته الطبية التي تشبه زجاجاتهما قعر استكان، وبوجهه المدوّر ولحيته القمحية اللون.

أخذ الأستاذ مكانه المعتاد في الغرفة، وقد بدا قصيراً جدّاً لفرط سمنته.

---

(١) كان الآباء يرسلون أولادهم الىٰ الكتاتيب لتعلّم مبادئ القراءة والكتابة والقـرآن قبل استحداث المدارس الحالية ـ المترجم.

ـ سلام يا أعزائي. آمل أن تكونوا جميعاً طيبين، اليوم هو الثاني من شهر شوّال وما تزال نكهة العيدين عيد الفطر وعيد نوروز في النفوس، وعلىٰ كلٍّ أُكرّر للتلاميذ الجدد والراسبين ان «للمكتب» قوانين وأُصولاً يجب مراعاتها، وعلىٰ التلميذ أن يلتزم الأدب والسكوت وأن يهتم بدرسه جيداً.

ـ آخ، آخ، آخ.

انطلق صوت غلام حسين ابن مشهدي[١] عطاء الله، بائع الخضروات؛ فقطع حديث الملاّ الذي صرخ بعصبية:

ـ ماذا حصل؟

ـ لقد ضربني جعفر بالقلم يا استاذ.

ـ متىٰ تصبح آدميّاً يا جعفر؟

ـ إنّه يكذب.

ـ ومَنْ فعل هذا غيرك؟ الحائط؟ أنت كسول منذ العام الماضي، وهذا العام أيضاً فيما يبدو، من الأفضل أن تذهب لتكنس الباحة، كما يتعيّن عليك أن تنظف المرحاض.

استأنف الملاّ حديثه: حسناً سوف نمرّ سريعاً علىٰ ما تعلمناه سابقاً، غداً امتحان للراغبين وبعد غد سأمتحن الباقين، ذاكروا دروسكم جيداً واستعدّوا.

نهض علي گودزي بوجهه الذي لوّحته الشمس وعظامه الناتئة وسأل:

---

(١) تطلق علىٰ من زار مرقد الامام الرضا عليه‌السلام في مدينة مشهد المقدسة.

ـ وكم نقرأ من الدروس للامتحان؟

ـ ما قرأناه من الدروس.

التفت الاستاذ صوب «حسين» ونادىٰ:

ـ حسناً ياحسين تعال الىٰ هنا.

نهض حسين مطرق الرأس وتقدّم باتجاه الملاّ، ربت الملاّ علىٰ كتفه بحنان وسأله:

ـ هل أنت مسرور في المكتب.

ـ نعم ياسيدي.

ـ أخبرني والدك بأنك تعلمت الألف باء وقراءة القرآن؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ والكتابة؟ أتعرف الكتابة؟

ـ قليلاً.

ـ حسناً سأعطيك درساً لتتمرّن عليه حتىٰ الظهر.

راح الصبي يراقب استاذه وهو يرسم خطوطاً بدت عجيبة وغريبة، فسأل:

ـ ماذا تعني هذه الخطوط؟

ـ الف ومئتان وتسعة وتسعون.

ـ ماذا؟

ـ تاريخ هذا العام، والآن اذهب لتتمرّن. ولا تنسَ أن تواصل تمرينك في البيت أيضاً.

قبل سبعة أعوام

كان الأب يرتشف شايه علىٰ مهل، التفت الىٰ حسين وسأله:

ـ هل ذهبت الىٰ المكتب اليوم؟

ـ نعم يا أبي.

ـ حسناً وماذا تعلّمت؟

فتح الصبي دفتره:

ـ انظر يا أبي هذا هو الدرس الأول.

أخذ الأب الدفتر وراح يتفحّص الخطوط علىٰ ضوء الفانوس.

ـ مرحىٰ.. مرحىٰ ياعزيزي... أتعرف ماذا كتبت؟

ـ ألف ومئتان وتسعة وتسعون.

ـ وماذا يعني ذلك؟

ـ تاريخ هذا العام.. قال ذلك الاستاذ.. ولكني لم أفهم مراده.

ـ يعني أنه قد مرّ علىٰ هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة الىٰ المـدينة الف ومئتان وتسعة وتسعون.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ حسناً الىٰ كم تعدّ الأرقام؟

ـ الىٰ الأربعمئة يا أبي.

ـ يعني أنّه قد مرّ علىٰ ذلك أكثر من أربعمئة و أربعمئة وأربعمئة عيد.

ـ وهل كنت موجوداً يا أبي؟

ـ لا يا عزيزي، لا أنا ولا أنت ولا أُمّك.. فأنت قد جئت الىٰ الدنيا مـنذ

سبعة أعوام، يعني في سنة الف ومئتين واثنين وتسعين.

ـ تعني قبل سبعة أعياد.

ـ نعم سبعة.

ويأتي صوت الأم التي كانت تهيئ أفرشة النوم.

ـ حسين!.. لقد حان وقت النوم يا ولدي.. نم مبكّراً كي تذهب الىٰ المكتب مبكّراً.

الامتحان

همهمة التلاميذ تغرق المكتب بتلك الأصوات المبهمة الخائفة..

بعض يردد اشعاراً يحفظها جيداً، وآخر يستعيد ما حفظه من آيات القرآن، فيما توقّف بعض التلاميذ أمام الملاّ يجيبون عن الأسئلة.

منذ الفجر وحتىٰ الضحىٰ والامتحان ما يزال مستمراً وقد بدا الاعياء علىٰ وجه الملاّ الذي خاطب بقية التلاميذ:

ـ آسف يا أعزائي سأؤجل امتحان بقية التلاميذ الىٰ غد بإذن الله. من الأفضل ان تولوا دروسكم الأهمية، أنا لا أمنع اللعب ولا المزاح ولا الضحك، ولكن لكلٍ وقته، وللدرس أيضاً وقت، وأنا لا أُريد منكم أكثر من الاصغاء لما أقول..

انظروا الىٰ حسين لقد مرّ علىٰ حضوره المكتب عام واحد ولكنه طوىٰ من الدروس ما يساوي ثلاثة أعوام.. انه لا يملك أربعة آذان، بالطبع انه مثلكم تماماً. واذا كان هناك فرق فهو في اصغائه لما أقول. فاذا لم يهضم ما

أقوله يسأل، وفي النتيجة أنتم تعرفون امتيازاته ودرجاته و..

وفي الأثناء قطع حديثه، بعد أن علت من زاوية الغرفة ضحكة ساخرة.

هتف الملاّ بعصبية:

ـ من هذا السخيف... اذا كانت لديه الشجاعة فليعرّف نفسه... وإلاّ ساضطر لمعاقبة الجميع.

ساد صمتٌ ثقيل الغرفة الكبيرة حتىٰ بدت وكأنها مهجورة.

كسر أبو الفضل السكوت المخيّم قائلاً:

ـ ولكنّا لم نضحك يا استاذ ـ محمد باقر هو الذي ضحك.

التفت الاستاذ صوب محمد باقر بعينين حارقتين.

ـ انهض يا محمد باقر لأراك جيداً... لقد مضىٰ عليك أربع سنوات في المكتب.. ولم تدرك حتىٰ الآن الفرق بين المكتب والاصطبل! هل هناك ما يُضحك في حديثي، وأجوبتك في الامتحان مجرّد فضيحة، تعال هنا.. نعم.. قِف علىٰ رجل واحدة.

التفت الملاّ صوب التلاميذ وخاطبهم برقّة:

ـ أما أنتم فيمكنكم الانصراف.

مدرسة «نوربخش»

ـ لماذا كففت يدك عن الطعام.. أرجوك تناول عشاءك ودع المجاملات جانباً.. البيت بيتكم يا ملاّ.

ـ أشكرك يا حاج كثيراً، أؤكد لك بأني قد شبعت تماماً أم تراك تريدني أن

أنفجر؟

ابتسم الحاج برقّة فأضاءت الابتسامة محياه.

ـ لقد قلت لأمّ حسين مراراً أن للملاّ حقاً عظيماً في رقابنا.

ـ ماذا تقول يا حاج إنني لم أفعل شيئاً.. حسين ـ ما شاء الله ـ ذكي جداً وهو الذي يريد أن يتعلّم كل شيء بسرعة.

ـ أنت تتواضع يا ملاّ.. الحق أنك بخبرتك الطويلة تدير أكبر الكتاتيب في «بروجرد»[1].

نهض الحاج علي وراح يجمع السفرة وينقل الأواني الىٰ المطبخ.

عاد الحاج وأخذ مكانه قِبال الملاّ واستأنف حديثه..

ـ مادام الأمر كما ذكرت وان حسين يبشّر بخير فقد فكرت أن يدرس في مدرسة «نوربخش» وستكون له حجرة فيها...

توقّف الحاج هنيهة:

ـ وبما أنك تدرّس هناك أيضاً فأرجو منك أن تواصل اهتمامك به، وتأكّد بأني لن أنسىٰ جهودك أبداً.

قال الملاّ مطرقاً:

ـ أنا في خدمتكم يا حاج.. رهن الاشارة.

قال الحاج علي وهو يعيد فنجان الشاي الىٰ الصينية:

ـ الحق ان التعليم عمل الأنبياء... وان ما يقدم للمعلّم من مكافآت

---

(١) مدينة ايرانية عريقة جنوبي العاصمة طهران.

لا يمكن أن تكون أجراً علىٰ جهوده وما يقدّمه من خدمة كبرىٰ.

نهض الحاج وهو يواصل حديثه وتناول مظروفاً من فوق الرف ثم قدّمه للملاّ باحترام:

ـ هذه هدية متواضعة أرجو قبولها.

ـ أبداً.

ـ ولِمَ؟!

ـ بالأمس دفعت لي مرتّب المكتب.

ـ ماذا تقول ياملاّ هذه لا علاقة لها بالمكتب.. انها مجرّد هدية تقديراً لاهتمامك بولدي. نهض الملاّ مستأذناً.

ـ حسناً يجب أن أذهب الىٰ المنزل.. لديّ أعمال يتوجّب انجازها... فزوجتي ما تزال متوعكة.

ـ أسأل الله لها الشفاء... لا تنسَ أن تبلّغها تحياتنا.

لماذا تأخّرت يا أبي؟

قال ميرزا مهدي صديق الحاج سيد علي بعد أن تناول افطاره:

ـ يا سيد لا مكان مثل بروجرد.

ـ أشكر الله انك أدركت ذلك، ألم يوجد من يخبرك بذلك؟... كيف سوّلت لك نفسك أن تترك هذه المدينة بمناخها الطيّب وتذهب الىٰ آخر الدنيا،

دامغان؟[١].

ـ كنت مضطراً يا سيد. بعد موت رباب ومصطفىٰ شعرت بأن الدنيا خرجت من قلبي... ففكرت أن أذهب الىٰ دامغان وأبيع بستاناً ورثته عن أجدادي وأذهب الىٰ كربلاء لأقضي بها بقية عمري حتىٰ يقضي الله أمراًكان مفعولاً.. رحمها الله.. كانت امرأة طيّبة، كانت تتمنىٰ دائماً السفر الىٰ كربلاء وزيارة مرقد الامام الحسين (عليه السلام) وكان ذلك منتهىٰ آمالها.. كلما ذكرتها وذكرت ابني أتحسّر وأقول ليتني بقيت تلك الليلة الىٰ جوارهما وأموت معهما تحت الانقاض.

ـ ليرحمهما الله، يا ميرزا أنت تريد وأنا أريد، ويفعل الله ما يريد ... الله وحده الذي يعرف صلاحنا.

ـ نحمد الله، نرضىٰ برضاه، حقّاً ياسيد! الدنيا تمضي بحلاوتها ومرارتها.. ولم يبق لي فيها ناقة ولا جمل.

ـ ماذا تقول؟ أنت لم تبلغ الخامسة والأربعين بعد، ماتزال تردد كلماتك القديمة اليائسة.

ـ ليست كلمات ياسيد. أظنّ أن سفري هذا آخر سفر الىٰ بروجرد.. رأيت ليلة أمس حلماً.. رأيت نفسي وكأنّي عدت من سفر طويل.. جلس الىٰ جانبي مصطفىٰ ورباب.. وأكلنا شيئاً من الفاكهة، فقال لي مصطفىٰ: لِمَ تأخّرت يا أبي.. كنّا ننتظرك منذ وقت طويل.. وقالت رباب برقّة: الآن وقد

---

(١) مدينة في أقصىٰ الشمال الغربي لايران ـ المترجم.

عدت الينا لا تتركنا.

أرأيت يا سيد، أظنّ بأني قد وصلت نهايتي وبلغت مرادي.

وفي الأثناء دخل حسين:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.. تعال يا عزيزي ما اسمك؟

ـ حسين.

ـ بارك الله فيك يابني.. هل تذهب الىٰ المكتب.

أجاب الحاج سيد علي:

ـ ذهب الىٰ المكتب مدّة وأتمّ دراسة جامع المقدّمات للسيوطي، المنطق، و «گلستان»[١]، والآن يدرس في مدرسة «نوربخش».

ـ ولماذا مدرسة نوربخش، الأفضل أن يذهب الىٰ مدرسة «شـازده» أو مدرسة حاج ملاّ أسدالله.

ـ هذا صحيح ولكن «نوربخش» مدرستنا علىٰ كل حال ومؤسسها أحد أجداد «حسين» من امه وهي أقرب أيضاً.

وجّه ميرزا مهدي كلامه الىٰ حسين:

ـ عند مَنْ تدرس يا عزيزي؟

ـ كنت أدرس عند ملاّ محمدرضا والآن عند اساتذة عديدين... أبـحث

---

(١) ديوان يضمّ أشعار سعدي الشيرازي الشاعر الايـرانـي المـعروف ـ تـرجـم الىٰ العربية تحت اسم بستان سعدي ـ المترجم.

عن الدروس الجيدة.

ـ ما شاء الله، لابدّ وأنك تبلغ الرابعة عشرة من عمرك، أليسَ كذلك؟

ـ نعم.

التقط الحاج سيّد علي خيط الحديث بقوله:

ـ ومن أين عرفت يا ميرزا؟

ـ لقد جاء حسين الىٰ الدنيا قبل شهور من ذلك الحادث.. أعني عندما ماتت رباب تحت الأنقاض..

ونهض الميرزا قائلاً:

ـ أم تراك نسيت زيارتنا لك أنا ورباب، والآن يتوجّب علـيّ أن أذهب، فلديّ أعمال كثيرة.

ـ مازال الوقت مبكراً.

ـ قافلة كربلائي[1] مصطفىٰ ستنطلق يوم السبت.. وعلـيّ أن أذهب أوّلاً الىٰ «صوفيان»[2] لأقرأ الفاتحة في مرقد سيد محمد... بالطبع كنت قد زرته عصر أمس ودعوت الله هناك وأقسمت عليه بجاه ذلك السيّد ان يغفر لنا ويحشرنا جميعاً في مستقر رحمته.

ـ واذن فليكن غداؤك هنا.

---

(١) تطلق علىٰ مَن زار مرقد الحسين (عليه السلام) في كربلاء ـ المترجم.

(٢) احدىٰ محلات بروجرد.

ـ كلاّ يا حاج، سوف اذهب الىٰ «سيلاخوربالا»[١] قرب الجامع العتيق. سأزور «الحاج يد الله گودرزي» كان شريكاً لي فيما مضىٰ، كنت أُتاجر بأمواله.. وفكرت أن أذهب اليه وأستوهبه.. انه رجل طيّب علىٰ كل حال.

توقّف هنيهة وقال:

ـ اخبرني المرحوم أبي بأن اسرتكم اسرة الطباطبائي سكنت بروجرد منذ مئتي عام، أما عائلة «الگودرزي» فقد استوطنت بروجرد منذ ألف عام أو أكثر..

ضحك ميرزا مهدي وأردف:أما أُسرتي فقد مضىٰ علىٰ قدومها بروجرد عشرون سنة فقط.

ـ زرنا في المساء.

ـ حسناً.. ربما.. علىٰ أنني سأزور أيضاً «مشد[٢] عباسقلي البنا» وربما أمضيت ليلتي هناك... والآن في أمان الله.

ـ ليحفظك الله.

ويمضي الصديق

نهض الحاج سيد علي من نومه فزعاً علىٰ أثر ضجة في باحة البيت وهو يفرك عينيه:

---

(١) احدىٰ محلات بروجرد.

(٢) مختصر مشهدي.

ـ ماذا حصل.

أجاب حسين:

ـ الحاج يد الله الكودرزي في الباب ويلحّ في طلبك... أخبرته بأنك نائم، لكنه أصرّ علىٰ ايقاظك.

أسرع الحاج نحو الباب، فأدرك ان حادثاً مؤسفاً قد حصل عندما وقعت عيناه علىٰ يدالله بثيابه السوداء الحالكة..

لم يترك الحاج يدالله فرصة للسلام، فهتف لدىٰ رؤيته سيد علي:

ـ اسرع يا سيّد.

ـ ولكن ماذا حصل؟

ـ توفي ميرزا مهدي رحمه الله.

ـ ليرحمه الله.. ولكنه كان علىٰ ما يرام في الصباح. انّا لله وانّا اليه راجعون.

ـ غادَرنا ظهراً الىٰ محلة «شجاعات» وفي الطريق سقط قرب جدار مسجد السلطاني ومات، حصل الأمر فجأة كما أخبروني... من الأفضل ان نقوم بالواجب ياسيّد، والليلة ليلة جمعة مباركة، لعلّ الله يغفر للجميع.

ـ سآتي حالاً.

وتوجّه السيد الىٰ غرفته وما أسرع أن عاد لابساً ثياب الحِداد ليشارك في تشييع صديقه.

وتضيق الأفئدة

في منزل سيد علي اجتمع شمل الاسرة، وكان أخو السيد جالساً يقرقر بنرجيلته وينفث، وسحابة من الدخان الأزرق تغمره عندما خاطب ابن أخيه حسين:

ـ واذن، فأنت عازم علىٰ السفر؟

ـ نعم يا عمي غداً صباحاً باذن الله.

ـ في السفر مشاقّ وغربة، والفؤاد يحن ويهفو الىٰ عشّه.. ألم يكن بوسعك أن تواصل دراستك هناك في بروجرد؟

كان الحاج سيّد علي يصغي، فقال علىٰ الفور:

ـ كلاّ يا أخي، طلب العلم فوق كل شيء... بروجرد قدّمت له ما يكفي وعليه أن ينطلق الىٰ مكان آخر.. والسفر والمشاقّ والغربة تنضج الانسان وتصنع منه رجلاً.

ـ هذا صحيح.. ولكن القلب قطعة لحم لا حجر، واصفهان ليست «خوربالا» لكي يذهب ويأتي كلما شاء.

أمسك الحاج سيد علي بخيط الحديث قائلاً:

ـ حسين فيما يبدو عازم علىٰ السفر.. وفي نيّته أن يتعلّم ويعود الىٰ بيته.

ارتشف العمّ فنجان الشاي علىٰ مهل وقال متبسماً:

ـ أحسنت والله يا أخي... لقد حان الوقت لكي يتزوّج، دعنا نفرح بعرسه قبل ان يجري علينا ما جرىٰ علىٰ «مشد صفر». نام مساءً ثم لم يستيقظ أبداً، ولا سمح الله.. ماذا تقول يا أخي؟

ـ ماذا قلت؟ عزرائيل لا يجامل أحداً كما تعرف.. ومشد صفر كان أكثرنا طلاقة وانشراحاً تلك الليلة. تحدثنا وضحكنا واتفقنا أن نـذهب غـداً فـي الصباح لمصالحة عديله مع والد زوجته.. في الصباح أخبرونا بوفاته.

ـ الحق معك ولكن مازال الوقت مبكراً وسنقوم بالواجب تجاه حسـين قريباً.

نهض العمّ وقال:

ـ والآن يتعيّن عليّ أن أذهب.

توجّه نحو حسين وأردف:

ـ بلّغ سلامي الىٰ نوح الدين وقل له لقد انتظرناك في العيد ولم تأتِ. ثم قبّل رأس حسين:

ـ أرجو أن يحفظك الله يابني وتعود الينا مرفوع الجبين.

ـ ليحفظك الله يا عمي.

وغادر العمّ وزوجته المنزل فيما وقف حسين مع أبيه في الباب ينظران اليهما حتىٰ غابا في الظلام.

الفصل الثاني

السـفر الأخضر

مدرسة الصدر

الحجرة الصغيرة لنوح الدين في الطابق الثاني من مدرسة الصدر وتقابل باب المدرسة تماماً.

ونوح الدين بثيابه البيضاء، وشعره القصير، ولحيته المسترسلة، وسمنته المفرطة، وقصره، يمسك بفنجان الشاي ويحدّق في باحة المدرسة. تمتم مع نفسه:

ـ ليتني استطيع الاستفادة من ميرزا جهانگيرخان أكثر ولكن كيف..

كان نوح غارقاً في أفكاره، فجأةً لاح له وجه حبيب اليه.. ماذا أرىٰ ابن عمي حسين.. كلاّ لا يمكن.. ووجد نفسه ينهض دون ارادة منه... نعم هو هو بنفسه، هتف منادياً:

ـ حسين.. حسين أنا هنا.

راح يعدو صوب درجات السلّم الطيني.. ويتعانق ابنا العم. وتمتم نوح الدين باكياً:

ـ حسين الطباطبائي ماذا تفعل هنا؟.. أين أنت وأين اصفهان؟.

ـ ماذا تقول يابن العمّ؟ يا استاذ اصفهان!

ـ كيف حالك، وكيف عمّي وعمّتي؟

ـ الجميع بخير ويبلغونك تحياتهم.

ـ حجرتي في الطابق الثاني.. هيا.

وراح ابنا العم يقفزان درجات السلّم بفرح، ملأ نوح الدين لابن عمّه فنجان الشاي وقال:

ـ الشاي الساخن يزيح عن النفس متاعب السفر...

سكت لحظة ثم أردف وهو يتأمّل ابن عمه:

ـ كم انا سعيد بقدومك.. كنت أشعر بالهمّ يجثم علىٰ قلبي حتىٰ انـي لم أذهب لحضور درس ميرزا جهانگيرخان.

كان حسين يتأمّل باحة المدرسة مستطلعاً، فلاح له رجل يرتدي عباءة سوداء ويعتمر قلنسوة وحوله جمع من الطلبة يتّجهون نحو باب المدرسة.

قال حسين متسائلاً:

ـ مَن يكون هذا الرجل؟

ـ انه استاذ الفلسفة ميرزا جهانگيرخان[1]... بل قل أبرز اساتذة الفلسفة.

تمتم حسين وهو يتأمّل:

---

(١) ولد في احدىٰ قرىٰ «دهاقان» في اصفهان سنة ١٢٢٤ هـ وتوفي سنة ١٣٢٨ هـ أمضىٰ حياته مزارعاً وعندما بلغ الأربعين مالت نفسه الىٰ طلب العلم وأصبح أحد أبرز العلماء في عصره في مدّة قصيرة، وعمّت شهرته في الفلسفة انحاء ايران. بقي علىٰ زيّه التقليدي الاّ اثناء ادائه الصلاة حيث يضع علىٰ رأسه عمامة صغيرة، أمضىٰ ٤٠ عاماً من حياته في تدريس الفلسفة والفقه والاصول والرياضيات. له اشعار في الحكمة وشروح لنهج البلاغة.

ـ وجهٌ عجيب.

ـ وما العجب فيه؟

ـ تشعّ من قسماته الهيبة وتلوح عليه العظمة.

ـ هذا هو شأن أولياء الله.. ستعرفه أكثر وستعجب أكثر. الآن تحت غرفتي هذه غرفة يعيش فيها استاذ قدير هو ملاّ محمد الكاشي.

ـ ولماذا؟ وهل هو أعزب يا ترىٰ؟

ـ نعم، رجل عجيب ستتعرف عليه فيما بعد، انـه دائـم التـفكير عـميق التأمّل..

سكت نوح الدين لحظة ثم القىٰ نظرة علىٰ حقيبة حسين وقال:

ـ حسناً، والآن قل لي أهذا كل ما جئت به من بروجرد.

ـ اوه، لقد ذكّرتني هناك بعض الحاجيات تركتها أمانة لدىٰ حداد قرب خان القوافل

حجرة

حلّ مساء ذلك اليوم ويتذكر جليل صديقه نوح الدين. دخل الغرفة علىٰ مهل وأخذ مكانه علىٰ بساط مرتفع قليلاً عن الأرض عادة ما يتخذه طلبة المدارس آنذاك للنوم. يلمس لدىٰ أول وهلة طيبة هذا الرجل الذي بلغ من العمر أربعين سنة، بوجه عريض ولحية مسترسلة وقامة مديدة.

أراد نوح الدين ان يكسر حاجز السكوت الذي سيطر علىٰ الحجرة، فقال لابن عمه:

ـ حسين! وهذا هو السيّد الجليل الذي طالما حدّثتك عنه، أديب وشاعر وعارف أيضاً...

تنحنح جليل موجّهاً حديثه لحسين:

ـ ابن عمك هذا يتلطف معي والاّ فأنا رجل بائس مسكين، أدرك بعد كل هذه الأعوام من الدراسة أن العلم ربّما كان طريقاً الىٰ الله، شريطة ان يفكر الانسان دائماً بالهدف المنشود من وراء طلب العلم، وهذا التفكير ضروري في تصحيح مسار الانسان، تماماً مثل الاسطرلاب الذي يوجّه السفن في عباب البحار...

وضع جليل صفحة كفّه اليسرىٰ علىٰ اذنه وراح يشدو بهدوء:

أنت يامن تنشد الكمال

بين جدران المدرسة

تدرس الحكمة وعلم الهندسة

ان لم يكن في قلبك ذكر للإلٰه

فتأكد ان ما تدرس مجرّد وسوسة

ابتسم نوح الدين وهو يقدّم لصديقه فنجان الشاي:

ـ لم أعد أراك ياصديقي.

التفت جليل صوب حسين:

ـ انظر ماذا يقول ابن عمّك، انظر كيف يدافع عن نفسه بعتاب الآخرين، لقد جئت لأعاتبه وأقول له أليسَ هناك مكان لأسم جليل في ذاكرتك، أتنسىٰ أصدقاءك بهذه السهولة، وهل أنا في كوكب المريخ، منزلي هنا خلف

مسجد الشيخ لطف الله[١].

ارتشف نوح الدين شايه وهو ينظر الىٰ صديقه متبسماً:

ـ مازلت تردد نفس كلماتك القديمة، أوّلاً أنا متأكّد من وجودك حيّاً ترزق، وثانياً لقد جئت لزيارتك فاخبرني جارك مشهدي كاظم بأنك لم تعد ترىٰ في المحلة منذ مدة.

ضحك جليل.

ـ كنت أمزح معك.. حقّاً لقد ذهبت الىٰ سبزوار يعني الىٰ قرىٰ «سبزوار»[٢] بحثاً عن أحد العرفاء.

قال نوح الدين مستغرباً:

ـ حقّاً ما تقول؟!

أجاب جليل:

ـ نعم.

ـ وهل التقيته؟

ـ عندما وصلت كان الرجل قد غادر الدنيا.

ـ واذن فرحلتك لم تسفر عن شيء.

ـ لا تكن قاسياً ياصديقي ان مجرّد السفر فائدة... والآن حدّثني عن ابن

---

(١) من أبرز المعالم السياحية في مدينة اصفهان ويعدّ ذروة ما وصل اليه الفن الاسلامي في العمارة والبناء والزخرفة ـ المترجم.

(٢) في اقليم خراسان ـ المترجم.

عمك حسين.. لقد سبق وان حدثتني عنه ولكن..

قال نوح ممسكاً بخيط الحديث:

ـ نعم.. انه باختصار السيد حسين الطباطبائي من بروجرد، شاب نشيط في درسه مجدّ... وقد تواترت الاخبار عنه انه لم يُرَ دون كتاب أبداً، فهو والكتاب صديقان لا يفترقان، حتىٰ في الأيام التي كنّا نذهب فيها الىٰ البساتين للترفيه عن النفس. أبوه ياصديقي من العلماء وقد درس في اصفهان وكان يقضي أوقات فراغه في حفظ القرآن الكريم، وقد عرفت عنه حبّه الشديد للفلسفة وميله الىٰ العرفان، دقيق النظر في المطالعة والبحث.

صفق جليل بيديه قائلاً:

ـ مرحىٰ.. مرحىٰ.. يالسعادتي هذه الليلة... قل لي ياحسين عند مَنْ درست الأصول؟

ـ عند السيّد محمدباقر الدرجي[1].

ـ رائع.. لقد درست دورته في الاصول.

وقال موجهاً كلامه الىٰ نوح:

ياصديقي نوح أرىٰ في وجه ابن عمك هذا ملامح رجل عظيم..

وضع جليل باطن كفه علىٰ اذنه وأطلق صوته شادياً:

ـ أنت أيُّها السائر في عرض الطريق لاتنظر باحتقار الىٰ ذرّات التراب..

---

(١) من كبار الفقهاء توفي سنة ١٣٤٢ هـ ودفن في مدينة اصفهان، له مؤلفات منها «حاشية على المكاسب».

ربّما اجتمعت يوماً في صورة سوار.

ابتسم نوح، وقال:

ـ شرط ان يأخذ بنصيحة ابن عمّه.

ـ وبماذا ستنصحه مثلاً؟!

ـ ألاّ يكون مثلي منزوياً لا يجرؤ حتىٰ علىٰ سؤال الآخرين اذا استعصت عليه مسألة.. وإلاّ فسيبقىٰ نكرة مجهولاً.

ـ ماذا تقول يا نوح؟ رضا الله هو الهدف وان يعيش الانسان مجهولاً ليس عيباً.. بل لعلّه نعمة في بعض الأحيان.. الشهرة والجاه والمقام كلّها سموم قاتلة اذا لم يكن فيها لله رضا.

سكت هنيهة وقال:

ـ أتذكر يانوح الحاج علي استاذ الأدب رحمه الله كان استاذاً بارعاً وله رأي في الشعر يقول فيه: ان حلاوة الشعر تكمن في مفرداته وحروفه، وان احلاه ذلك الذي يخلو من الحروف التي تنطبق فيها الشفاه، حيث الشعر ينساب من الفم دون انطباق للشفتين.

ـ نعم كان استاذاً بارعاً.

ـ لقد زرته في أخريات أيامه وكان منزله عبارة عن حجرة طينية فوق السطوح خاوية على عروشها ليس فيها من عرَض الدنيا متاع وكان وحيداً... تصوّر كيف يعيش رجل عجوز ماتت امرأته وفَقد بصره.

عندما زرته رأيته يهشم كسرة خبز يابسة ويغمس الهشيم في لبن حامض.

وعندما سلّمت عليه أجاب بصوت خافت: مَنْ تكون؟

قلت: تلميذك جليل، فقال: جليل الذي يؤلف مع نوح الدين غلافي كتاب واحد.

أجبت متأثّراً: نعم.

ثم قال بصوت حزين: لا أدري هل يثير شهيّتك مثل هكذا طعام فادعوك لمشاركتي.. من الصعب علىٰ المرء ان يتعوّد شظف العيش، لكني يا جليل تعودت.. أجل تعودت.

ـ ليرحمه الله.

ـ نعم يرحمه الله.

أطبق صمتٌ حزين علىٰ المكان.. قال جليل يحاول تبديد الحزن:

ـ ياحسين ان ابن عمّك هذا أقرب الىٰ قلبي من أخي. لقد عشنا معاً مدّة خمسة وعشرين سنة.. والآن استودعكما الله.. لا تنسَ يا حسين ان تزورنا.

ـ سأفعل ذلك.

ـ في أمان الله.

مشكلة حسين

انتهىٰ درس الفقه، وأخذ السيد محمد باقر الدرجي مكانه جانباً وراح يجيب عن اسئلة التلاميذ. وشيئاً فشيئاً غادرت همهمة الطلاب المكان ليعود الصمت يسيطر مرّة أُخرىٰ.

نهض الاستاذ من مكانه وأخذ طريقه صوب الباب، فيما ارتفع في سماء المدينة صوت أذان خاشع يدعو الىٰ الصلاة.

كان حسين مايزال يلملم نفسه استعداداً لمغادرة المكان. خاطبه استاذه وهو يمرّ به:

ـ هل حلّت المسألة.

ـ نعم يا استاذ.

ـ لا أعني مسألة الدرس، وسوستك اللعينة تلك.

ـ الحقيقة اني لا ازال أُعاني منها.. الشيطان أوقعني في حـبائل الشك.. وما ازال أتوضأ فأشك فأُعيد وضوئي مرّات ومرّات.

ـ لسوف أُعالجك بنفسي.. هيا نتوضأ معاً ثم نذهب الىٰ المسجد.

ـ ولكن سنتأخر عن صلاة الجماعة.. أعني الناس سينتظرون..

ـ لا عليك.. سأراقب وضوءك.

واتجها نحو الحوض الذي يتوسط الباحة الواسعة. وما أسرع ان اسـبغا الوضوء... ولعلّ حسين قد علته الدهشة وهو يرىٰ نفسه يتوضأ مرّة واحدة.

فرغ الاستاذ من الصلاة والتفت الىٰ حسين:

ـ حاول اجتناب الشك، ولا تعد صلاتك في الحجرة أبداً.. لقد أوصيت نوح الدين ان يراقب الصلاة، امّا انا فسأُراقب وضوءك، يبدو ان هذا هو الحل لوسوستك التي لا طائل من ورائها.

سبّوحٌ قُدوس

كان الوقت عصراً عندما عاد حسين من درس الفلسفة وكعادته اتّجه نحو حجرته غير مكترث باحتشاد الطلبة عند حجرة مير عماد.

لاحت التفاتة من نوح الدين:

ـ الىٰ أين.. ألم تحضر درس ابي المعالي يا حسين؟

ـ كان متوعكاً فاعتذر الينا. حقاً ما سبب هذه الضجة؟

ـ مايزال مير عماد مبهوتاً بما شاهد منتصف ليلة أمس... لقد استيقظ فوقعت عيناه علىٰ ملاّ محمد الكاشاني وكان ساجداً لله يتمتم: سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح.. وكانت الجدران تردّد معه ذلك التسبيح، وعندما أخبره بذلك أجاب الملاّ: ليس عجيباً تسبيح الأشياء لله ولكن الأعجب انّك سمعت ذلك التسبيح.

ـ عجيب.. سأذهب لأستمع تفاصيل القصّة كلّها.

لماذا العجلة

كان حسين يجمع سفرة الغداء عندما خاطب ابن عمه نوح الدين:

ـ سأذهب الىٰ بروجرد، هل لديك حاجة؟

ـ بروجرد؟ لماذا؟

ـ استلمت رسالة من أبي هذا الصباح، لعلّه يرتّب سفري الىٰ النجف.

ـ النجف؟ وهل شبعت من اصفهان؟ أربعة أعوام لا تكفي يابن العم.

ـ ولكن النجف تضمّ بين حناياها باب مدينة العلم.. هناك مركز النور.

ـ ومتىٰ الرحيل الىٰ بروجرد؟

ـ هناك قافلة ستنطلق بعد غد ان شاء الله.

ـ أنت عجول دائماً.. والآن متىٰ سأكتب رسالة الىٰ والدي؟ غداً سأكتبها..

حقّاً لاتنسَ ان تستفسر من اسماعيل الكودرزي هل وصله كتاب «زاد المعاد» الذي أرسلته اليه؟... وبالطبع لاتنسَ ايضاً ان تبلِّغ الجميع سلامي.

أوامر الأب

أسرع حسين وهو يطوي أزقّة بروجرد، نحو منزله، يحدوه الشوق، البيوت الطينية تقف متواضعة، مدرسة نوربخش، دكان الحاج حسين قلي، منزل الملاّ محمد رضا... كل شيء في مكانه كما تركه منذ أربعة أعوام... تمتم في نفسه:

ـ الأشياء نفسها لم تتغيّر.. الناس وحدهم يتغيّرون، يكبر الصغار ويشيب الكبار.

كان حسين غارقاً في هواجسه، وعلىٰ حين غرّة وجد نفسه امام الباب.. وكان مواربا.. دفعه بهدوء ودخل..

ـ يا الله.. يا الله..

خرجت الأُمّ من القبو. وما أسرع ان تجمعت في عينيها دموع الشوق كغيوم ممطرة، احتضنت الأُمّ ولدها العائد بفرح.. وأسرع الأب لاستقباله وعانقه بحرارة:

ـ كيف الأحوال يا ولدي؟

ـ علىٰ مايرام ياأبي.

ـ تعال لقد جئت في الوقت المناسب. وأردف وهو يقود ابنه الىٰ الغرفة:

ـ الحق ان أُمّ زوجتك امرأة طيّبة.

هتفت الأم من باحة الدار وهي تحمل صينية الشاي والكلوجة[١]:

ـ وكيف لا تكون طيبة وهي ترعىٰ حسين أكثر من امّه.

فوجئ حسين بحديث والديه، فسأل وعلامات الاستغراب ترتسم فوق وجهه:

ـ ماذا حصل يا أبي؟ اسمع كلمات ولا أفهم معناها!

ارتفع صوت طرْق علىٰ الباب، وتنحنح العم وهو يقول:

ـ يا الله... يا الله.

ـ ما هذه المجاملات يا أخي هل تحسب نفسك غريباً.

دخل العم والىٰ جانبه زوجته، وخفّ حسين لمعانقة عمّه وتحية امـرأة عمّه.

تمتم العمّ مبتسماً بود:

ـ ماذا يا حسين؟ أم تراك نسيت عمّك أربعة أعوام... ولا تذكر عمّك أحيٌّ هو أم ميّت.

ـ لا سمح الله يا عمّي انا أسأل عنكم دائماً.

ـ كنت جالساً في البيت عندما أخبروني بمقدمك، فقلت لامرأة عمّك هيا لزيارته فقد اشتقْتُ اليه كثيراً.

قالت أم حسين وهي تصبّ الشاي:

ـ لا أدري كيف أجبر ألطافكم.

---

(١) نوع من الحلوىٰ تعدّه النسوة في الأعياد ومناسبات الفرح ـ المترجم.

استأنف العمّ حديثه:

ـ امرأة عمّك طالما ألحّت عليّ بالذهاب الىٰ اصفهان، انها لاتذكر نـوح الدين إلاّ وذكرتك... بل لعلّها تحبّك أكثر من ابنها يا حسين، قالت زوجة العم وهي تعدِّل شادرها[1]:

ـ ماذا أفعل يا رجل؟ قلبي ينبض بهما... تراودني الهـواجس ان أمـوت قبل أن أراهما.

تمتم حسين مطرقاً:

ـ لا سمح الله.. لا سمح الله..

قال العمّ:

ـ لا يمرّ يوم إلاّ ونتذاكر في شأنك.

ـ انه تقصير مني اذن، لقد اشتقت اليكم أيضاً.. لم أكن أدري بأن الشوق يعذّب القلوب.

قضم الأب طرف الكلوجة:

ـ ليس الشوق وحده بل لعلّه الاحساس بالواجب والمسؤولية هو الذي دفعني لأن أبعث اليكم الرسالة..

قال حسين:

ـ لم أكد استلم الرسالة حتىٰ حزمت حقيبة السفر، لقد اشتقت اليكم كثيراً رغم ان شوقي الىٰ النجف كان...

---

(١) عباءة ترتديها النسوة في ايران.

ـ النجف؟!

ـ أليس في نيّتك يا أبي ان ترسلني الىٰ النجف؟

ـ ماذا تقول يابني؟.. الأمر باختصار انني تحدّثت مع عمّك في الموضوع وقلت ان حسين قد بلغ سنّ الزواج وقد آن له ان يشكّل اُسرة ويكون له بيت..

تمتم حسين منزعجاً:

ـ ألهذا بعثتم ورائي؟ أَلَم تفكروا بدراستي أيضاً؟

ـ هل انت غاضب يابني؟

ـ انا غارق في الدراسة والبحث ياأبي وليس في نفسي أن أتزوّج .. الزواج يعني أن أتوقّف عن الدراسة، لا.. لا ياأبي لن أتزوّج في هذه الفترة علىٰ الأقل.

تدخّل العمّ بعد أن أعاد فنجان الشاي الىٰ الصينية.

ـ حاول ان تدرك مشاعر الأبوّة ياعزيزي، انت الآن في فورة الشباب.. هاجسك الوحيد الدراسة، ولكن قدِّر أحاسيس الآباء. انهم لايفكرون بشيء سوىٰ مستقبل أبنائهم.

ثم مَن قال ان الزواج يعني نهاية الدراسة؟

ـ اذا كانت هذه رغبة والدي فلا مانع عندي شريطة أن يتمّ كل شيء بسرعة لأعود الىٰ دراستي.

قال العمّ وهو يلتفت الىٰ أخيه ضاحكاً:

ـ ألم أقل لك ياأخي انه مستعجل جدّاً هو الآخر.

علّقت امرأة عمّه وقد طفحت الفرحة علىٰ وجهها:

ـ لاتخشَ شيئاً من أهل الضجيج... بل اخشَ مطرقي الرؤوس!

وضحك الجميع وطافت صينية الشاي مرّة اخرىٰ وملأت رائحة الهـيل فضاء الغرفة.

العودة

كان نوح جالساً الىٰ جانب الحوض يغسل ثيابه. فجأة ظهر امـامه ابـن عمه، نفضَ يده من الغسيل وقال متهكماً:

ـ ماذا حصل يا حسين؟ هل عدت من النجف؟

ـ لقد عدت كما ترىٰ ولكن ليس الىٰ حجرتك.

ـ ماذا تعني؟ هل مللتني بهذه السرعة؟

ـ لقد انتهتْ حياة العزوبية.

ـ تزوجت.. يالك من داهية.. لماذا لم تخبر ابن عمّك علىٰ الأقل؟

ـ ومن أين لي أن أعرف؟ أنا نفسي لم أسمع الخبر إلاّ متأخّراً.

ـ مبارك لك يابن العم.. انا نفسي لا أدري لماذا اشتهت نفسي اليوم كيكة مع شاي مهيّل؟

ـ واذن فمصائب قوم عند قوم فوائد.

ـ قل لي كيف تمّ الزواج بهذه السرعة؟

ـ لقد وجدت كل شيء حاضراً، ويبدو انهم احتاجوني في آخر لحظة.

ـ هه.. هه.. هه..

ـ اضحك كما تشاء، اما انا فلا أدري ماذا آخذ وماذا أدع.. عليّ أن أعود بسرعة..

ـ لقد أصبحت ربّ اسرة بحق..

نسيت أن أقول لك لقد سألوني عنك وقالوا بأنك قد واعدتهم علىٰ تدريس «القوانين»[1].

ـ لقد رأيتهم بالأمس واتّفقنا علىٰ أيام الأربعاء قبل أذان المغرب بساعة.

ـ الىٰ أين؟ اصبر قليلاً. سوف انشر الثياب ونجلس قليلاً.

ـ لا يابن العم، لا وقت للحديث بعد الآن، اصبحت صاحب عيال، وعلىٰ صاحب العيال ان يعود مبكراً.

دولة الحب

كان الوقت ربيعاً، وقد بدا الجوّ أجمل في نظر نوح الدين ورفيقه جليل وهما يحثّان الخطىٰ في الأزقّة متّجهين نحو منزل حسين فاليوم يوم جمعة والساعة ساعة صباحية منعشة.

كان حسين منصرفاً بكل حواسّه الىٰ المطالعة عندما ارتفع صوت طرق علىٰ الباب، حدس حسين ضيفه فأسرع نحو الباب.

ـ السلام عليكم.

ـ تفضّلا. أهلاً باحباء الله.

---

(١) «قوانين الأصول» للميرزا القمي ـ كتاب قيّم في أصول الفقه.

ـ يا الله.. يا الله..

ـ تفضلا انه منزلكم.

ـ أجال جليل بصره في الغرفة الطينية، كانت خالية إلاّ من بعض البُسط القديمة، ولكنه شعر بأن كل شيء في المنزل غارق بالحب، الحبّ الطـاهر المفعم بروح الايمان العميق.

دخل حسين الغرفة وهو يحمل صينية الشاي ويكرّر ترحيبه بالضيوف. ابتسم نوح الدين وقال:

ـ اننا نذكركم دائماً.. فاذكرونا مثل ذكرانا لكم.

أجاب متودداً:

ـ انها مشاغل الحياة.. ذهبت الىٰ بروجرد وعندما عدت انشغلنا بالبحث عن منزل.

ارتشف نوح الدين جرعة من فنجانه.. الحياة ملأىٰ بالمصاعب.. ليست مفروشة بالورود.

ـ انا لا أتألم الاّ بقدر ما تأخذ من وقتي. أحاول ان يكون أكـثر وقـتي للدراسة وطلب العلم... سكت هنيهة وأردف:

ـ أحياناً أُفكر في نفسي وأقول لو كانت لديّ ثروة لأنـصرفت كـليّاً الى الدراسة، وأعود فأقول ربما غيّرت الثروة تفكيري.. تجعلني أُفكر في أشياء أخرىٰ غير الدراسة.

ابتسم حسين وأضاف:

ـ عندما يـرسل لي أبـي شـهريتي لاتكـاد تكـفيني اسبوعين، وفـي

الاسبوعين الآخرين أشعر بأني أدرس أكثر وأتقدّم أكثر.

علّق جليل قائلاً وهو يهزّ رأسه مؤيّداً:

ـ نعم هذا صحيح.. يبدو ان الفقر يشحذ الهمم.

ابتسم نوح الذي كان ساكتاً:

ـ وبين ليلة وضحاها يتحوّل التلميذ الىٰ استاذ بارع، يحضر درسه في «القوانين» ما يقارب المئة طالب...

ـ لقد سمعت الكثيرين يطرون درسه، ويثنون علىٰ اسلوبه.

والتفت الىٰ نوح:

ـ ينبغي أن ننصرف.

قال حسين:

ـ الىٰ أين؟ أبهذه السرعة؟.

ـ لقد اتّفقنا علىٰ زيارة ملاّ محمد الكاشاني.. ثم اننا قد نؤخّرك عن دروسك.. في أمان الله.

ـ في أمان الله.

ـ في حفظ الله.

ليالي الماضي

مضىٰ جزء من الليل وزوجة سيد حسين مشغولة بحزم الأمتعة:

ـ بقيت بعض الأشياء فقط... متىٰ نسافر؟

رفع سيد حسين عينيه عن الكتاب وألقىٰ نظرة علىٰ زوجته.

ـ بعد غد بإذن الله... لقد ودّعت الجميع، ولم يبق لي شيء في اصـفهان. نبقىٰ مدّة في بروجرد ثم نفكّر في سفرنا الىٰ النجف فيما بعد.

ـ حقّاً، ان أخي اسماعيل سيذهب الىٰ النجف أيضاً، الأفـضل ان نـنتظر ريثما يتهيأ هو الآخر.

ـ سنبقىٰ في بروجرد مدّة من الزمن... صـلة الأرحـام تـطيل الأعـمار وتجلب الأرزاق.

ـ اشعر بالنعاس.. ألا تنام؟

ـ سأقرأ عدّة صفحات ثم أنام.. نامي أنتِ.

ـ وراءك سفر. نم هذه الليلة مبكراً علىٰ الأقل.

ـ هناك وقت للنوم.. والحياة كلّها سفر.

في ركاب الاستاذ

الشمس تلامس ذرىٰ التلال في الغرب، حسين الذي حلّ في النجف منذ مدّة يقف الىٰ جانب العطّار الوحيد في محلّته الصغيرة يتحدّث بـهدوء مـع «الحكيم» ميرزا يحيىٰ:

ـ لا ياميرزا... «لسان الثور»[1] و«سنبل الطيب»[2] كان مؤثّراً جدّاً.

---

(١) نباتات برّية تنبت في المناطق الجبلية وحقول الحنطة وأوراقها عريضة وطويلة تشبه لسان الثور وازهارها صغيرة بنفسجية اللون تتفتح في أواخر الربيع.

(٢) نبات أوراقه عريضة وأزهاره صغيرة طيبة الرائحة تـنتب فـي المـناطق الرطـبة ←

ـ الرطوبة يا سيد حسين! الرطوبة. عليه الاّ يلامس الماء هذه المدّة وسأحضر لك غداً مقداراً من «الزيت الأسود»[1] يضمد به قدميه قبل النوم.

في الاثناء مرّ الآخوند الخراساني يحفّ به جمع من تلامذته. ودّع سيد حسين ميرزا يحيى وانطلق في ركاب استاذه وهمس في اذن شيخ محسن اليزدي:

ـ الىٰ أين ان شاء الله؟

ـ الىٰ منزل أحد العلماء وصل النجف حديثاً.. انه قريب.. تعال معنا.

أخذ الضيوف أماكنهم في غرفة صغيرة، وغمر الصمت المكان، استلّ سيد حسين ورقة وسلّمها الىٰ استاذه.. القىٰ الخونساري نظرة في الورقة. سأل الشيخ محسن الذي كان جالساً الىٰ جانب سيد حسين مستفسراً:

ـ لاشيء.. سؤال حول درس اليوم لم تتوفر الفرصة لطرحه.

قال الآخوند:

ـ ملاحظة جميلة سنبحثها غداً باذن الله.

وبدأ حوار بين العالمين، أصغىٰ له التلاميذ بانتباه حتىٰ ارتفع اذان العشاءين فنهض الجميع متوجّهين صوب حرم أمير المؤمنين(عليه السلام).

وتنفع في علاج التشنجات والاختلالات العصبية والأرق.

(١) أزهاره صفراء وبنفسجية وحبوبه سوداء حادّة الرائحة تنفع في علاج السعال واليرقان والديدان وآلام المفاصل.

لينتبه السادة جيداً

الحرم العلوي مغمور بجلال الروح الكبيرة لبطل الاسلام الخالد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهمهمة أكثر من الف ومئتين من التلاميذ تمتزج مع دعوات المصلّين ومناجاة الزائرين، والجميع في انتظار قدوم الاستاذ.. وينهض سيد حسين فيناول ورقة الأمس الىٰ استاذه «الآخوند الخراساني»[1].

ساد سكون مهيب أرجاء المكان وانسابت كلمات الآخوند كنهر يحمل في تياره صفاء الايمان والعلم:

ـ لقد أشكل بعض أصدقائنا علىٰ موضوع الأمس. أطلب من سيد حسين ان يطرح الاشكالات بنفسه وأرجو من جميع السادة الانتباه جيداً، وهنا نهض سيد حسين الطباطبائي يورد اشكالاته، وأدرك الجميع ان عالماً جديداً يبرز في تلك اللحظات وما اعجاب الآخوند واهتمامه الاّ بداية الطريق نحو القمة الشامخة.

الفصول

أنهىٰ سيد حسين البروجردي درس الفصول، ويبدأ مئتا طالب مغادرة

---

(١) «١٢٥٥ ـ ١٣٢٩ هـ» من مشاهير الفقهاء الشيعة، ولد في مدينة مشهد وتوفي في النجف الأشرف، كان مرجعاً عظيم القدر في عصره، ويُعدّ كتابه «كفاية الأصول» من أشهر الكتب الفقهية ومايزال يحتلّ مكانة الصدارة في المناهج الدينية.

المكان علىٰ مهل.

سأل رجل عجوز أحد التلاميذ:

ـ مَنْ يكون استاذكم هذا؟

ـ سيد حسين البروجردي.

ـ وماذا يدرّس؟

ـ الاصول.

ـ لم أرَهُ من قبل!

ـ قدم من ايران حديثاً... ولفتت فطنته الخراساني بل ان الآخوند عندما يلقي بحثاً ما فانه ينظر اليه ليرىٰ رأيه في ذلك، فاذا انتهىٰ الاستاذ من درسه أعاده البروجردي لمن فاته درك الموضوع وفهمه.

ـ واذن فهو عالم لا ريب في ذلك؟

ـ عفواً، يجب ان اذهب والاّ فاتني الدرس.

لماذا الحزن؟

ثمانية أعوام مرّت علىٰ اقامة سيد حسين في النجف الأشرف.

كان جالساً في زاوية من زوايا الحرم تطوف في وجهه النوراني غيوم حزينة، وراحت الوجوه التي التقاها في مدينة علي (عليه السلام) تمرّ أمام عينيه: وجه السيد محمد كاظم اليزدي[1]، ووجوه

(١) «١٢٥٦ ـ ١٣٢٧ هـ» من كبار العلماء في عصره، ولد في مدينة يزد بايران، له .

أخرىٰ احبّها فتح كتاباً كان معه. ووقعت عيناه علىٰ ورقة كتبها شيخ الشريعة الاصفهاني[1] تؤيد فيها اجتهاده ومنزلته العلمية.. تمتم مع نفسه:

ـ ترىٰ لماذا يطلب أبي مني العودة.. لعلّ أُمي مريضة أو..

هتف شيخ محسن الذي مرّ من أمامه:

ـ لماذا الحزن يا سيدنا.. أغَرِقَتْ سُفنك؟

ـ لقد أرسل أبي ورائي وطلب مني العودة... وقلبي لا يطاوعني علىٰ فراق من أحببت في النجف.

ـ ومتىٰ الرحيل؟

ـ بعد غدٍ بإذن الله.

ـ يعني يوم الأربعاء... واذن هناك متّسع من الوقت لعيادة الاصدقاء.. هيا بنا الىٰ منزل ميرزا محمد حسين التبريزي فهو مريض منذ يومين.

ونهض سيد حسين مغادراً الحرم باتجاه منزل أحد الاصدقاء.

كتاب «العروة الوثقىٰ» وهو من الكتب المشهورة في الفقه.

(١) «١٢٦٦ ـ ١٣٣٩ هـ» من مفاخر علماء الامامية، ولد في اصفهان، فقيه، وحكيم وأديب ورياضي.

الفصل الثالث

سنوات الشتات

الأجل لاينبئ أحداً

جلس سيد حسين علىٰ طرف السرير وراح يتأمل وجه والده.. فتح سيد علي عينيه وتمتم بصوت واهن:

ـ حسين!

ـ نعم يا أبي.

ـ اخبرتني أُمّك بأنك تحزم امتعتك؟

ـ نعم يا أبي.

ـ لقد أمضيت تسعة أعوام في اصفهان، وثمانية في النجف، ألم يحنِ الوقت لتبقى الى جانب والدك في شيخوخته، وربما رحلتُ عن الدنيا دون أن أراك مرّة أُخرىٰ.. الأجل لا يخبر أحداً، ولا يطرق الباب مستأذناً.

ـ ماذا تقول يا أبي؟

ـ واذن فما معنىٰ عودتك الى النجف؟ بعد هذا الاستقبال الواسع في بروجرد من قِبل الناس... انهم بحاجة الىٰ عالِم يرشدهم.

ـ هذا صحيح يا أبي ولكن المدينة لا تخلو من العلماء، فهناك الشيخ حسين النجفي والحاج ميرزا محمد حسن الطباطبائي... وهما أفضل مني.

ـ ليكن، الا تفكّر بأبيك؟ انـه يـريدك ان تكـون الى جـانبه فـي أيـامه الأخيرة... دعني أغمض عينيّ وأنا مطمئن البـال حـيال والدتك وأخـيك الصغير.

كانت كلمات الوالد بسيطة مؤثرة الى الحدّ الذي جعلت من سيد حسين يغيّر قراره بالرحيل الىٰ النجف فيمكث في بروجرد الىٰ حين.

رحيل الأبوين

رياح باردة تجوس أزقّة بروجرد والشتاء يحتضن المنازل، جلس سيد حسين وسيد اسماعيل الىٰ «الكرسي»[1] والى الجانب الآخر جـلس نـوح الدين بلحيته الحنطية غارقاً في أفكاره، وقد ذكّره الصمت والبـرد بـليالي مدرسة الصدر.

قال بعد ان رفع رأسه قليلاً:

ـ سيداسماعيل! أليسَ هناك سراج؟ المطالعة تتعب البصر في الظلام.

نهض سيداسماعيل.. اضاء السراج ووضعه فوق «الكرسي» وتمتم:

ـ سأعدّ الشاي.. الشاي يبعث الدفء والمتعة في النفس.

علّق نوح الدين وهو يمسّد لحيته:

---

(١) عبارة عن منضدة خشبية مـتوسطة المسـاحة والارتـفاع يـوضع تـحتها مـوقد وتغطىٰ المنضدة بلحاف (ملاءة سميكة، مـحشوّة بـالقطن) ويـجلس أفـراد الأسـرة واضعين أرجلهم تحت اللحاف التماساً للدفء ـ المترجم

ـ إنها أفضل فكرة تفتّقت عن ذهنك منذ الصباح يا عزيزي.

غادر اسماعيل الغرفة ومال نوح على ابن عمه هامساً:

ـ والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

تمتم سيد حسين بحزن:

ـ كنت قد تسلمت رسالة بعد وفاة والدي رحمه الله من استاذي[1] يعزّيني فيها بوالدي ويعرب عن شوقه لزيارتي، وما أن أعددت عدّة السفر حتىٰ جاء من يخبرني بموته.. ليرحمه الله. كان بمثابة الوالد لي. وها أنا أفقد في مدّة ستة أشهر أبوين. إنها ضربة تقصم الظهر.

ـ ليرحمهما الله!

ـ بعد رحيل الخراساني... أشعر بأني قد عزفت عن العودة الىٰ النجف... كل شيء في تلك المدينة يذكرني به... ثم ان بقائي في بروجرد قد أصبح ضرورياً جداً فيما يبدو.

دخل اسماعيل حاملاً صينية الشاي. أضاءت ابتسامةٌ وجه نوح الدين:

ـ مرحىٰ، مرحىٰ يا سيد اسماعيل. انت كوالدك رحمهالله تخدم الضيوف.

التفت صوب سيد حسين وأردف:

ـ نعم يا سيد حسين لتبق في بروجرد. المدينة بحاجة الىٰ ابنائها.

ارتشف سيد حسين شايه وقال:

ـ وأنت هل تبقىٰ في بروجرد؟

(١) الآخوند الخراساني.

ـ الحقيقة انني نويت العودة الى اصفهان بعد شهور...

نسيت ان اذكر ان جليلاً يبلغك تحياته وقد شعر بالأسف لموت عمي.. أراد ان يرافقني في القدوم الى بروجرد ولكن زوجته كانت مريضة.

وأردف وهو يخرج من جيبه قصاصة ورق، انظر لقد كتب لك هذه الأبيات من الشعر لسعدي[١].

قال سيد حسين وهو يحدّق النظر في الورقة الصغيرة:

ـ ليحفظه الله... قل له يأتي في المرة القادمة.

ـ انا ذاهب يا ابن‌العم. لاتنس انك مدعو ايضاً في‌بيت محمدحسين.

ـ سآتي مع أمي واسماعيل.. اننا جميعاً مدعوون.

ـ اذن سأراك هناك.

دخل اسماعيل وهتف فَرِحاً:

ـ لنذهب معاً فانا حاضر كما ترون.

ونهض الجميع متوجهين نحو منزل السيد محمدحسين الطباطبائي.

تقي دزفول

شمس تير[٢] تشق طريقها في الأفق شيئاً فشيئاً، وسيد حسين الذي اشتهر بحجة الاسلام جالس في مكتبته يعدّ بحثه اليومي في الفقه والأصول.

---

(١) سعدي الشيرازي شاعر ايراني معروف.

(٢) الشهر الرابع في السنة الايرانية.

كان غارقاً في المطالعة، ولم ينتبه الى نفسه الاّ عندما ارتفعت طرقات علىٰ الباب، وبالرغم من تعوّده على ذلك، خاصّة وان وفاة الحاج محمد حسين النجفي دفع بالكثيرين من الناس الىٰ مراجعة السيد حسين للاستفسار عن وظائفهم الشرعية، رغم كل ذلك فقد خامر السيد شعور وهو يتوجّه لفتح الباب بوجه الطارق الجديد.

رجل عجوز يشعّ من عينيه بريق الايمان وتطوف فوق جبينه هالة من النور مع لحية تشبه سحابة بيضاء.

ـ سلام عليكم.. تفضل.

ـ عليكم السلام، أرجو الاّ أكون قد أزعجتك في هذه الساعة المبكّرة من الصباح.

ـ ابداً.. أرجوك تفضّل.

لم يكد الرجل العجوز يجلس حتى قال معرّفاً نفسه:

ـ انا محمد رضا الدزفولي، نصحني الطبيب بمغادرة خوزستان في فصل الصيف.. وقد أشار عليّ بعض الأصدقاء أن آتي الىٰ بروجرد لطيب هوائها.

سكت هنيهة ثم أردف:

ـ لقد مضىٰ علىٰ قدومي ثلاثة أيام.

ـ وأين قضيت كل هذه المدّة... يبدو اننا قد حرمنا ثواب عيادتك كمريض واستقبالك كضيف عزيز، وفوق كل هذا ننهل من فيض علمكم.

ـ استغفر الله! لقد أرشدوني اليكم وقد سبق وان اطّلعت علىٰ شروحكم

حول «العروة الوثقىٰ»[1] فلم أجد أفضل منها.

ـ انه لطف منكم.

ونهض السيد ليحضر الشاي.

قال وهو يقدّم الفنجان باحترام:

ـ اذا كان في نيّتكم امضاء الصيف في بروجرد، فمن الأفضل ان تـؤمّوا المصلين في جامعها أو تشكّلوا حلقات للدرس.

ـ لقد جئت للاستجمام فقط... وسأكون مسروراً لو تفضّلْتم بالسماح في مطالعة كتبكم.

ـ كل شيء تحت تصرفكم.

ـ سأبدأ اذن بالاطّلاع على مبانيكم في الأصول..

ـ بالطبع ليس لي كتاب وانما هو حاشية عـلى كـتاب كـفاية الأصـول لاستاذي.

قال السيد ذلك وهو ينتشل كتاباً من أحد الرفوف. وأردف:

ـ كتبتها يوم كنت في النجف الأشرف.

نهض محمد رضا الدزفولي مستأذناً؛

ـ لا أريد أن آخذ من وقتكم، فلديكم درس في الصباح كما أعلم.

ـ ما يزال هناك متسّع من الوقت، ثم ما المانع من بقائكم، سأعود بسرعة.

ـ في الحقيقة انا انتظر ضيوفاً من دزفول، ربما يصِلون بين لحظة وأُخرىٰ.

---

(١) كتاب فقهي مشهور ألّفه محمد كاظم اليزدي وتوالت عليه شروح الفقهاء.

ـ في أمان الله.

ـ لا تنسونا في الدعاء.

سهام مسمومة:

ـ بحرمة لا إلٰه إلاّ الله

هتف بذلك، الحاج يحيى الدزفولي فرددت جموع المشيعين:

ـ لا إلٰه إلاّ الله.

ـ محمّد رسول الله.

ـ رددوا عالياً: لا إلٰه إلا الله.

النعش الذي يضمّ جثمان الشيخ محمد رضا الدزفولي يطفو فوق رؤوس الجماهير كقارب يشقّ طريقه وسط الأمواج.

جفف الحاج محسن الشوشتري عرقه وخاطب الشيخ علي:

ـ هل أرسلتم وراء السيد حسين؟

ـ نعم.. لقد ذهب ميرزا حبيب.

وأردف وهو يحدّق جهة الشرق.

ـ انظر لقد جاء السيّد.

وارتفعت الصلوات في الفضاء لدىٰ رؤيته...

لم تمض سوىٰ فترة وجيزة حتىٰ بدأت مراسم الغسل والتكفين وتـقدّم سيد حسين لاداء صلاة الميت. جنحت الشمس للمغيب، وانطلق المشيعون الىٰ مسجد المهدي..

همس الشيخ علي وهو يسير الىٰ جانب سيد حسين:

ـ هؤلاء يا سيدنا اتباع المرحوم الدزفولي جاءوا من مدن عديدة؛ بعضهم من شوشتر، ودزفول، ماهشهر، آبادان، أهواز[١] و...

سكت لحظة وأردف:

ولقد أوصىٰ المرحوم بأن يرجعوا اليكم في مسائلهم الشرعية...

القىٰ الشيخ نظرة على السيد ليعرف ردّ فعله واستطرد:

ـ وحسب علمي ليس «خوزستان» وحدها بل المناطق الغربية من البلاد كلها تميل الىٰ تقليدكم.

ـ وهل تعتبر هذا مجداً لي.. انها مسؤولية صعبة.. بل لعلّها فتنة.. أرىٰ في الأفق سهاماً مسمومة.. أتدري لِمَ تأخرت عن التشييع... لقد أخبروني بأن بعض المسؤولين في العاصمة يروجون «للبهائية» هذه الأيام، ويسخرون من تعاليم الاسلام الحنيف، بل انهم تمادوا في غيّهم فراحوا يقيلون المؤمنين من مناصبهم ويسنلموها الىٰ من يؤيد هذه الفرقة الضالّة.

قال الشيخ علي متأسفاً:

ـ والناس؟.. ماذا فعل أهل طهران؟.. هل سكتوا؟

ـ نهض أهل طهران أم أحجموا.. سأقوم بواجبي مهما تكن النتائج.. لا تنس يا شيخ ان تنبه الىٰ خطر «البهائية»[٢] في أحاديثك ودروسك.

---

(١) مدن في اقليم خوزستان وهي مدن عربية في الغالب. المترجم

(٢) فرقة ضالّة ظهرت في ايران وروّج لها أعداء الاسلام، ازدهرت أيام الشاه.»

ـ سأكون طوع ارادتكم يا سيدنا.

مشروع «معتمد الملك»

مكتب قائمقام المدينة غارق في صمت مرير، ورؤوس مختلفة الحجم والشكل تتوزع علىٰ طاولة مستديرة جاءت لتضع حلاً لمشكلة ظهرت فجأة في بروجرد وصارت همّاً للعاصمة أيضاً.

العيون متّجهة الى القائمقام بقامته القصيرةوجثته الضخمة، الذي راح يعدّل ربطة عنقه الرمادية اللون استعداداً لكسر الصمتالمخيّم.

ـ أيّها السادة ولكي تكون الصورة واضحة لديكم فسوف أستعرض لكم الحوادث باختصار، الأمور بدأت كالتالي: عندما قام مدير سجل النفوس العام بتنصيب أحد موظفيه معاوناً له بعد أن وافق الأخير على اعتناق البهائية، وطار الخبر الى السيد الطباطبائي، الذي اتّصل على الفور بالعاصمة مطالباً بعزل المدير من منصبه وفتح تحقيق بالمسألة، ولم يجد السيد أُذناً صاغية رغم الحاحه بالموضوع، عندها قام السيد بالاتصال بكبار المسؤولين ولكنه لم يحصل علىٰ جواب.

بعدها قرّر السيد مغادرة المدينة احتجاجاً على ذلك، والى هنا تبدو

واحتل افرادها مناصب حسّاسة في الدولة، تصدّت لها الثورة الاسلامية واجتثت جذورها. تتلقىٰ حالياً دعماً من اسرائيل وامريكا بغية استغلالها في تنفيذ مآرب وأهداف رخيصة. ـ المترجم.

المسألة عادية، ولكن وكما تعلمون فان هناك تأييداً شعبياً واسعاً، فاتخذت المسألة طابعاً خطيراً عندما طرحت في المساجد والمدارس الدينية. الناس وباختصار يطالبون بعودة السيد الى مدينته، والسيد يطالب بعزل مدير النفوس.

جفّف القائمقام جبينه، وأردف:

ـ لقد اتصلت بالعاصمة.. وبالتحديد بوزير الداخلية ورئيس الوزراء أيضاً وأوضحت لهما المسألة، وتلقيت تعليمات محددة حول الموضوع تؤكد على تشكيل لجنة لبحث الموضوع، واللجنة مخوّلة في صلاحيتها.

سعل القائمقام واستطرد:

ـ امامنا ـ وكما ترون ـ ايها السادة طريقان لا ثالث لهما، فأما عزل هذا البهائي، أو مواجهة الناس.. وبالطبع فان أسلم الطريقين هو الأول.. وأنا اعتقد لو أن جناب الشاه كان حاضراً فسيكون رأيه هو نفس هذا الرأي.

علّق العقيد بختياري قائد الدرك قائلاً:

ـ ان سيادة القائمقام علىٰ صواب تماماً ولكن الاستجابة وبهذه السرعة لمطالب الناس سيضعف من هيبة الحكومة وقد «يزعل» السيد مرّة اخرىٰ بعد شهر، ويطالب بتنحية القائمقام، فماذا سيكون موقفنا عند ذلك؟ أرجو أخذ المسألة بنظر الاعتبار حتىٰ لا يتجرأ الناس علىٰ الحكومة في المستقبل.

تدخل اردشير خان «مفاخر الملك» بعد أن عدّل من جلسته:

ـ ان ما ذكره العقيد منطقي للغاية.. ولكن نحن نعيس حالة خطر تنذر بوقوع كارثة، فلماذا نفكر في مسألة قد تحدث في المستقبل ونترك الحاضر وهو في حالة غليان، ان أسلم طريق لحل المشكلة هو ما أشار اليه سيادة

القائمقام وإلاّ فان مواجهة شعب غاضب مغامرة.

هزّ الجميع رؤوسهم مؤيدين، عندها التفت القائمقام الى معاونه وهمس:

ـ عقدت الجلسة المرقمة ٢١ بحضور السادة قائد قوات الدرك قائد الفرقة، معتمد الملك ومفاخر الملك وبعض الشخصيات المخلصة للعرش، وقرّرت الآتي:

بالنظر لأهمال مدير النفوس واستغلاله لمنصبه قرر المجتمعون عزله فوراً واعادة السيد الطباطبائي الى المدينة، وتقرر ان تقوم رئاسة قوات الدرك بتنفيذ ذلك.

ودارت الورقة علىٰ الحاضرين للتوقيع عليها.

العودة الظافرة

ارتفعت الصلوات من حناجر الجماهير المحتشدة لاستقبال السيد الطباطبائي.. ومن بعيد لاحت عربة تجرّها الخيول. هتف الحاج موسىٰ وقد أخذته موجة حماس:

مرحباً بمن فقأ عيون أعداء الاسلام... صلّوا علىٰ النبي وآله..

رددت الجموع:

ـ اللّهم صلِّ علىٰ محمّد و آل محمّد...

همس أحدهم:

ـ هل عاد السيد اذن؟

أجاب آخر:

ـ ذهب وفد من قِبل الحكومة وطلب من السيد العودة.

ـ وذلك البهائي ماذا فعلوا به؟

ـ طردوه من منصبه.. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين..

ترجّل السيد من العربة وحيّا الجموع المحتشدة لاستقباله وشكرهم علىٰ تضامنهم قائلاً:

ـ الحمد لله الذي أذلّ أعداء الاسلام، والحمد لله الذي صدقنا وعده اذ قال سبحانه: «ان تنصروا الله ينصركم».

لقد أقررتم عينيْ صاحب الزمان (عجّل الله فرجه الشريف).

وبهذه المناسبة، وشهر رمضان المبارك علىٰ الأبواب، سوف نخصّص هذا الشهر الكريم للحديث عن الامام العظيم معتمدين في بحوثنا المصادر السنّية والشيعية لكي نُدخل اليأس في قلوب الأعداء.

وارتفعت الصلوات مرّة أُخرىٰ وسط اعجاب الجماهير التي ترىٰ في قائدها رجلاً يقارع بمفرده حكومة عصره.

استأنف السيد حديثه:

ـ أرجو من السادة العودة الىٰ أعمالهم مطمئني البال. انّ الله ولي الذين آمنوا وسيحفظ دينه من كيد الأعداء.

في عزاء الأبناء:

كان السيد حسين ومعه جمع من المؤمنين يجتازون الأزقّة المؤدية الىٰ مدرسة «نوربخش».

علت الدهشة وجه غلام حسين الشالجي، وارتسمت علامات استفهام علىٰ جبينه الأسمر الذي لوّحته الشمس، أسرع نحوهم وهمس في أُذن أحمد الخادم:

ـ الىٰ أين؟

ـ الىٰ مقبرة صوفيان؟

ـ ماذا حصل؟

ـ لاشيء.. لقد اعتاد السيد الطباطبائي أن يذهب الىٰ المقبرة يقرأ الفاتحة علىٰ روح ابنته التي وافاها الأجل اثناء الولادة قبل مدّة...

ـ الأولاد فلذات الأكباد، فكيف وهي ابنته الوحيدة.

وصلتم في الوقت المناسب

الحاج غلام رضا السعيدي الذي جاء مع جمع من أهالي (شمس‌آباد) الى مشهد جالس في حجرة ابنه ميرزا محمد. الابن يتأمل في وجه أبيه النحيل وشعره الذي اشتعل شيباً ويتمتم:

ـ لِمَ العجلة يا أبي؟

ـ لا يا بني والدتك لوحدها.. وهناك أعمال يتعيّن عليّ انجازها.

ـ لقد حلَّ في مشهد عالم كبير منذ شهور.. ومن الأفضل أن تزوره يا أبي.. النظر الى وجه العالم عبادة.

ـ ما اسمه؟

ـ السيد حسين البروجردي، له مقلّدون كثيرون في غرب وجنوب

البلاد.. يُقال انه جاء للزيارة والترويح عن النفس بعد وفاة ابنته الوحيدة.

ـ كنا نتسكع منذ الصباح هنا وهناك... لماذا لم تقل ذلك من قبل؟

ـ وماذا حصل الآن؟ أجّل سفرك يوماً آخر.

ـ اذن لنذهب الآن لزيارة السيّد.

ـ الآن؟!

ـ نعم، نذهب بمعية عمّك والحاج براتعلي وآخرين، هذا أفضل وأوجه.. والآن انهض لتغيّر ثيابك.

لم تمضِ فترة حتىٰ لاح لفيف من الرجال وهم آخذون طريقهم باتجاه المنزل الذي حلّ فيه السيد حسين. وترتفع طرقات علىٰ الباب؛ ويظهر مشهدي أحمد خادم السيّد:

ـ تفضّلوا.

انبرىٰ ميرزا محمد قائلاً:

زوّار قادمون من نواحي دامغان يودّون لقاء السيد.

ـ تفضّلوا لقد وصلتم في الوقت المناسب. لقد نوىٰ السيد مغادرة البيت لزيارة الشيخ حسن علي الاصفهاني.

وأخذ الضيوف أماكنهم.

رحب السيد بضيوفه وسأل باهتمام:

ـ كيف الزراعة والأرض؟.

ـ نحمد الله ونشكره.

تمتم السيد بخشوع:

ـ ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لنزّلنا عليهم بـركات مـن السماء... الايمان يبارك في العمل، والشكر يزيد الرزق.. «لئن شكرتم لأزيدنكم».

دخل الخادم حاملاً صينية الشاي وراح يوزّع الفناجين بوقار.

قال براتعلي الذي كان ساكتاً:

ـ من حسن طالعنا اننا تشرّفنا بزيارتكم. لقد سمعنا بأنكم تنوون العودة الىٰ بروجرد.

ـ نعم باذن الله.. الرسائل تترىٰ من هناك تطلب العودة.. سأذهب بعد غد وربما بقيت في طهران مدّة.

ـ نرجو ان تسمح لنا بالانصراف.

ـ لا تنسونا بالدعاء. ليحفظكم الله.

الهدايا

مضت أيام علىٰ عودة السيد الىٰ بروجرد، وخادمه يعيد للمرّة الألف انباء الرحلة الىٰ مشهد المقدسة، وها هو يروي القصّة الىٰ عديله:

ـ نعم يا حاج يحيىٰ.. ماذا أقول ومن أين أبدأ؟ هل أحدّثك عن الوفـود التي كانت تختلف اليه في مشهد أو في طهران، أم عن الاسـتقبال المـنقطع النظير له في قم واراك وملاير!

ـ سمعت بأنكم أمضيتم أياماً في اراك.

ـ نعم، عندما وصلنا اراك سمعنا بأن الشيخ عبد الكريم الحائري[١] جاء لزيارة أقارب له فقرّر السيد البقاء في اراك أياماً للقاء الشيخ الحائري..

هتف الحاج يحيى منادياً ابنته:

ـ فهيمة.. فهيمة!

ـ نعم يا أبي.

ـ اين العشاء؟.. أم تراه سحور يافهيمة!

ـ حالاً يا أبي.

ظهرت فهيمة وهي تحمل السفرة، فقال الحاج يحيى مداعباً:

ـ كدت أن أيأس من العشاء كما يئست من «ساهون»[٢] زوج خالتك.

قالت فهيمة مدافعة:

ـ ماذا تعني يا أبي؟

ـ لاشيء سوىٰ أن زوج خالتك ذهب خاوي اليدين وعاد خاوي اليدين.. وانفجر الجميع ضاحكين وهم يتحلّقون حول المائدة.

رسالة خاصة

مضت أيام علىٰ زواج السيد حسين الثاني الذي تمّ بإلحاج من زوجته الأولىٰ. السيد جالس في مكتبته لتدريس بعض الطلبة.. قال ميرزا ابو

---

(١) مؤسس الحوزة العلمية في قم المشرفة.

(٢) حلوىٰ تشتهر بها مدينة قم.

القاسم وهو يرتّب كتبه:

ـ هل نحضر يوم السبت؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ لقد سمعنا بأنكم ستذهبون الىٰ حجّ بيت الله الحرام.

ـ هذا صحيح ولكن ليس الآن. الشهر القادم باذن الله.

ـ حقاً ياسيدنا سمعت بانكم مدعوون لزيارة تبريز.

ـ وصلت رسالة خاصة من جمع من المؤمنين يطلبون فيها تقليدي.

ـ وأخيراً أدرك أهل آذربايجان الحقيقة، فالقمر لا يبقىٰ خلف الغيوم الىٰ الأبد...

قاطعه السيد قائلاً:

ـ احذر الشيطان يابني.

ـ وهل أجبتهم يا سيدنا؟

ـ ان لواء الاسلام اليوم يرفعه السيدابوالحسن الاصفهاني،والجميع يقلّده، وليس من مصلحة الاسلام بثّ التفرقة وشقّ وحدة الصف.

لقد اعتقلوه

كان الحاج الخادم جالساً في زاوية وقد غاص في تفكير عميق، فسأله مضيفه وهو أحد العلماء من كرمانشاه[1].

---

(١) مدينة غرب ايران.

ـ ماذا حصل يا حاج؟

ـ لقد أخذوا السيد عند الحدود.

ـ ماذا؟

ـ خلاصة الأمر ان السيد ولدىٰ ذهابه الىٰ النجف الأشرف أمضىٰ مدّة شهر هناك والتقىٰ بعض الشخصيات من بينهم آية الله الاصفهاني والميرزا النائيني، والسيد ضياء الدين العراقي، ومن هناك ذهبنا الىٰ مكة عازمين حج بيت الله الحرام، ولدىٰ العودة مررنا بمدينة «الكاظمين»[1] وهنا وصلته رسالة تبشّره بمولود مبارك اسماه السيد «محمد حسن» ثم عرّج السيد على النجف مرّة أُخرىٰ فأمضىٰ هناك مدّة ثمانية أشهر بعدها عزم العودة الىٰ ايران، وما ان وصلنا الىٰ حدود قصر شيرين واذا بمجموعة من رجال الأمن يعتقلونه.

ـ ومتىٰ حصل الأمر؟

ـ عند الغروب.

ـ والىٰ أين أخذوه؟

ـ لا أدري.

ـ ستبقىٰ في منزلي ريثما ينجلي الأمر.

---

(١) من نواحي مدينة بغداد، تضم مرقد الامامين موسىٰ الكاظم وحفيده الامام الجواد عليهما السلام.

قائد الفرقة

ارتدت بروجرد حلّة جديدة فبدت في وجه جديد، رجال الأمن مبثوثون هنا وهناك، ومسجد السلطاني غارق في حلّة سوداء فيما ترتفع من مأذنته اصداء آيات من القرآن الكريم.

قال عبد الكريم متسائلاً:

ـ ماذا حصل يا ابراهيم؟

أجاب ابراهيم النجار:

ـ ألم تسمع لقد قُتل عبدالله خان قائد الفرقة وهو في طريقه بين بروجرد و خرمآباد؟

نعم لقد سمعت ولكن ما علاقة هذا بذاك؟

ـ سوف يتوقّف الشاه [١] في بروجرد لقراءة الفاتحة قبل ذهابه الىٰ خرمآباد.

توقّف لحظة وقال:

ـ ألا تأتي معي لرؤية الشاه؟

ـ ورائي عيال ينتظرون مني لقمة عيش.

ـ انظر الىٰ حشود الناس المتجهة الىٰ المسجد، كلّهم يريدون رؤية الشاه.

ـ دعني وشأني، اذهب أنت واستمتع برؤيته.

قال ذلك وهو يستأنف طريقه نحو دكانه جنب مسجد العتيق.

---

(١) رضا خان.

مضت ثلاث ساعات تقريباً وغادرت الجموع مسجد السلطاني.. كـان الحاج (علي جمعة) عائداً الى منزله لتناول الغداء.

هتف مشهدي عبد الكريم لدىٰ رؤيته:

ـ تفضل يا حاج.. لابد وانك تحمل أخباراً؟

ـ أخبار كثيرة... حضر الشاه في المسجد ومكث عدّة دقائق قرأ الفاتحة وغادر، وقبل ان يغادر سأل كبير الطباطبائيين قائلاً:

ـ كم فرد في أُسرتكم يحمل اسم سيد حسين؟

أجابه سيد عبد الحسين:

ـ واحد وهو مرجعنا في التقليد وقد ذهب الىٰ الحج.

أجاب الشاه:

ـ كلا، انه الآن في طهران.

تساءل السيد:

ـ ولماذا؟

أجاب الشاه:

ـ مجرد اجراءات امنية، لقد ارسل مخفوراً من الحدود الىٰ العاصمة.

ـ تعنون أنّه معتقل؟

سرت همهمة في جنبات المسجد وقد لاحظ الشاه ذلك فقال:

ـ ليطمئن السـادة أنّه الآن في طهران وهو حرّ في البقاء أو الانصراف.

بعدها مال الشاه علىٰ مرافقه (الحاج قائم الملك):

ـ قولوا لطهران في ان يحلّ السيد في منزل ممثل بروجرد الىٰ أن أعود.

ارتفعت الصلوات من كل مكان. بعدها نهض الشاه وغادر المسجد.

تساءل مشهدي عبد الكريم:

ـ ولماذا اعتقلوه؟

ـ بعد أن غادر الشاه، سألنا السيد عبد الحسين نفس هذا السؤال، فقال:

ـ يُقال ان بعض علماء اصفهان اجتمعوا في مدينة قم واعترضوا علىٰ سياسة الدولة، وهناك شكوك من قبل الحكومة في أن يكون السيد أحدهم.

قال الحاج ذلك ثم غادر الدكان باتجاه منزله.

منزل ثقة الاسلام

كان عصراً خريفياً، والسيد محمد تقي ثقة الاسلام ممثل مدينة بروجرد في المجلس الوطني، جالس في منزله، فجأة رنّ جرس التليفون، فكسر الصمت المهيمن علىٰ أطراف الغرفة الفسيحة، رفعت زوجته السماعة والتفتت جهة زوجها:

ـ محمد تقي.

نهض ثقة الاسلام وأخذ السماعة:

ـ الو. سلام يا سيادة رئيس الوزراء.. الحمد لله.. ماذا؟ ضيف؟.. من؟.. الحاج سيد حسين البروجردي؟.. وهل هو في طهران؟.. ومتىٰ قدم الىٰ هنا؟.

وجاء صوت رئيس الوزراء قائلاً:

ـ لم يأتِ بنفسه. أحضروه مخفوراً، لكن الأمور تجري الآن علىٰ ما يرام..

لقد اتّصل الشاه وأمر بأن يحلّ السيد ضيفاً في منزلكم ريثما يعود.

ـ حسناً أنا قادم. هل هناك أمر آخر.

أعاد السماعة الىٰ مكانها.

تساءلت الزوجة؟

ـ لاشيء، لدينا ضيف.

ـ مَنْ؟

ـ السيد حسين البروجردي.

ـ مَنْ كان علىٰ الخط؟

ـ رئيس الوزراء.

وأسرع ثقة الاسلام الىٰ ارتداء بدلته. وهناك وجد هيئة الأركان مؤلّفة من مخبر السلطنة رئيس الوزراء، وبعض الوزراء والقادة العسكريين. ابتسم رئيس الوزراء:

ـ لا تقلق يا ثقة الاسلام لقد وصل حديثاً وانا نفسي لم أسمع الخبر، والبلاد تمرّ في أوضاع حسّاسة، واحضار السيد كان مجرّد اجراء احترازي، وقد وصلت أوامر تقضي بالإفراج عنه مع توصية بأن يحلّ ضيفاً عليكم.

تمتم ثقة الاسلام: انه ابن عمي علىٰ كل حال، ولا يحتاج الأمر الىٰ توصيات.

مرّت لحظات وظهر في الباب وجه مضيء يشعّ من عينيه بريق له وقع في النفوس.

أسرع ثقة الاسلام الى لقاء ابن عمه وسقط علىٰ قدميه يقبلهما. بادر

رئيس الوزراء وساعد ثقة الاسلام علىٰ النهوض ثم سار الثلاثة باتجاه سيارة خاصة كانت بالانتظار.

جلسا يرتشفان الشاي وتساءل ثقة الاسلام:

ـ أين اعتقلوك؟

ـ في الحدود في نقطة قصر شيرين[1]. وأردف معاتباً:

ـ كل شيء منك حَسنٌ ياثقة الاسلام ولكن وقوعك علىٰ قدميّ آلمني.

ـ أعرف انك تنفر من هذه المظاهر ولكني قصدت أمراً آخر.. أردت أن أُبيّن للمسؤولين مقام المرجعية فلا يسيئوا في المستقبل.

مرّت لحظات ورنّ جرس الباب.. وظهر رئيس الوزراء ومعه عدد من الوزراء. جاءوا للاعراب عن أسف الشاه واعتذار الحكومة..

نصيحة

قدم ثقة الاسلام فنجان الشاي وهمس متسائلاً:

ـ كيف كان لقاؤك مع الشاه؟

ـ لم تكن لي رغبة باللقاء، لقد كنت مضطراً كما ترىٰ.

ـ ماذا قال؟

ـ قال لي ألا تطلب شيئاً... أتمنىٰ ان تطلب مني ذلك، رفضت ذلك في

---

(١) مدينة في الحدود الغربية تعرّضت للتدمير الكامل اثناء الحرب العراقية الايرانية عام ١٩٨٠ م.

البدء ولكن مع اصراره قلت: اذا كان ولابدّ فاني واثناء عودتي في «هيئة الأركان» رأيت ان تموين الجنود لم يكن كافياً ولذا أرجو ان تصدروا أمراً برفع كمية التموين..

ارتشف السيد جرعة فنجانه واستأنف حديثه:

ـ فوجئ الشاه بطلبي.. وقال لأول مرّة أسمع من رجل دين طلباً يتعلّق بأمور الجيش والجنود، لقد اعتدت سماع الطلبات الشخصية...

ولقد أثار دهشتي ذلك الخوف الذي يكتنف كل من يراه... كنت أتحدّث معه كما لو كنت أتحدث مع فرد عادي.

ـ هل قال شيئاً آخر؟

ـ لقد تحدّثنا عن أشياء كثيرة، وكنت أدرك ما يرمي اليه الشاه، انه لفت الأنظار اليّ نكاية بالشيخ عبد الكريم الحائري، وكان في معرض حديثه يكرّر قائلاً: اننا نكنّ لكم بالغ الاحترام وسنراجعكم في المستقبل بدل مراجعة الحائري. لكني أجبته بحزم: من الأفضل مراجعة الحائري مباشرة، أنا أيضاً اراجعه اذا ما طلبتم مني شيئاً، ورأيت من الأفضل تقديم النصيحة اليه.

اتّسعت عينا ثقة الاسلام دهشة:

ـ تنصح هذا الرجل الذي لايجرؤ أحد علىٰ التحدّث معه!!

ـ أجل لقد نصحته بألاّ يبتعد عن علماء الدين ورجاله، وان يقبل نصحهم فهم لايريدون سوىٰ الخير للبلاد والعباد...

ثم اخبرته بأني أنوي السفر الىٰ خراسان فبرقت عيناه فرحاً، وقد أدركت

حينها بأنه يرغب في أن أكون بعيداً عن قم والمنطقة الغربية بشكل عام، أو البقاء في طهران علىٰ الأقل لسهولة المراقبة... ومن شدّة فرحه أمر لي بخمسين ألف تومان... وربما ظنّ بأني سأركن اليه والىٰ حكومته..

علّق ثقة الاسلام:

ـانه مبلغ ضخم يمكن صرفه خدمة للدين..

قال السيد مقاطعاً:

ـكلا يابن العم، انه يتنافىٰ وعزّة الاسلام ولذا رفضت المبلغ وقلت: انا في ضيافة الامام الرضا عليه السلام.

فسألني عن موعد السفر، فأخبرته: صباحاً باذن الله.

شعر ثقة الاسلام انه حان الوقت لكي يدع السيد يأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يسافر غداً، فنهض مستأذناً ضيفه.

ياله من زمان

ـ وهكذا أمضيت مئة يوم في طهران أشبه بالسجين، ولقد ألحوا عليّ في أن أبقىٰ بطهران ولكني رفضت متعلّلاً بعلاقاتي في بروجرد، ومن طهران ذهبت الىٰ مشهد حيث أمضيت هناك سبعة أشهر.

كانت الحاجّة تصغي الىٰ زوجها وتحرّك مروحة يدوية كان قد أحضرها اليها من مشهد.

لثم السيد فنجان شايه واستطرد:

ـومن مشهد عدت الىٰ قم وآخر المطاف في بروجرد. والآن يحتجزون

جواز سفري لمنعي من السفر لزيارة العتبات المقدسة في العراق.

تمتمت الحاجّة وهي تملأ فنجاناً:

ـ ياله من زمان حتىٰ الزيارة أصبحت ممنوعة، وتـذكرت عـودتها مـع الحاج أحمد من قصر شيرين الىٰ بروجرد.. ولعنت في نفسها أولئك الذين اعتقلوا زوجها وخطفوا الفرحة من قلبها؛ نظرت الىٰ زوجها وقالت:

ـ ولكن يبدو ان اجتماعك مع علماء النجف كان سبباً لاعتقالك.

تمتم السيد وهو ينهض للصلاة في المسجد:

ـ بالطبع لم آت بيد خالية.

سنوات الشتات

القمر يضيء أزّقة بـروجرد بـنور فـضيّ، وتـجّار المـدينة واثـرياؤها مجتمعون في بيت السيد، قال ميرزا محمد ولي (أمين التجار) متسائلاً:

ـ أتدرون لِمَ أرسل وراءنا السيد؟

أجاب الحاج كاظم خان وهو يداعب لحيته:

ـ غداً يصادف ١٧ من الشهر وكان من المقرر ان تصل البضائع يوم ١٥.

ـ ماذا تقول؟ الانگليز والامـريكيون كـالجراد والنـمل يـنتشرون فـي سواحل الجنوب، والروس يجتاحون شمال البلاد، نـحمد الله ان بـروجرد ليست في طريقهم وإلاّ فلن نسلم علىٰ أموالنا وأعراضنا.

ـ لاندري ماذا يضمر لنا المستقبل؟

ـ لا شيء، لقد اختلط الحابل بالنابل، ويُقال ان «رضا خان» قد فرّ، الأيام

عاصفة يا حاج وعلىٰ المرء أن يتشبث بقبعته وإلاّ طارت مع الريـح.

ـ واذن...

وانقطع الحديث لدى دخول السيد الذي أخذ مكانه مرحباً بالحاضرين، ثم بدأ حديثه الذي أرسل وراءهم من أجله:

ـ الجميع على علم بما ألمَّ بالبلاد من ويلات ودمار، والناس يـجوعون والفقراء يشتدون جوعاً، واليوم ولدىٰ عودتي من مسـجد السـلطاني رأيت منظراً هزّني بشدّة، رأيت امرأة تحمل طفلاً رضـيعاً وتـجرّ وراءهـا صـغاراً شاحبي الوجوه، اعترضت طريقي وقالت بمرارة:

ـ أنت يا سيدنا نائب امام الزمان.. كيف يأكل هؤلاء الأطفال هذا الخبز المحروق، وكان بيدها رغيف أسود نتن الرائحة وقد اشترته بثمن باهظ..

نعم أيها السادة ولقد بكيت لمنظرهم. انـها اسـرة يـعصف بـها الجـوع والتشرّد وأنتم أغنياء المدينة وتـجارها ومـحسنوها، ولقـد قـال سـبحانه وتعالىٰ: «**لن تنالوا البرّ حتىٰ تنفقوا ممّـا تحـبون**» ولقـد أرسـلت وراءكـم لتنهضوا بمسؤوليتكم تجاه المحتاجين والمعوزين.

انبرىٰ تجار المدينة لتقديم هباتهم وحوالاتهم فاجتمع مـبلغ فأوصـىٰ السيد كل من الحاج مهدي افتخار التجار والحاج محمد ولي أمين التـجار والحاج ابراهيم مشير التجار بتبني الأموال وتأسيس مـخبز لهـيئ للـناس رغيفاً طيباً يتيسر للناس الحصول عليه.

قال أحدهم: ولكن ياسيدنا المال يفيض علىٰ كلفة مـخبز فـماذا نـفعل بالباقي؟ أليسَ من الأفضل ان نبني أيضاً مصنعاً لحياكـة السـجاد ومـولّداً

للكهرباء، واستحسن الجميع الفكرة فارتفعت الصلوات تُبارك هذه الأعمال الخيرية.

وتأخّر الدرس

اجتمع الطلاب عصر ذلك اليوم في منزل السيد كعادتهم، تساءل أحدهم بعد أن مرّ وقت:

ـ ألا يحضر السيد هذا اليوم؟

أجاب زميله:

ـ لا أدري ولكن ربما يحضر متأخّراً.

قال آخر محاولاً قطع الوقت:

ـ ياجماعة أتدرون لماذا يقدم الحاج أحمد الشاي للجميع إلا نحن؟

أجاب آخر ضاحكاً:

ـ الشاي يقدّم للزوار والضيوف امّا نحن فمقيمون.. نأتي في الصباح ونغادر المنزل في الغروب.

وانفجر الطلبة ضاحكين. فجأة ظهر السيد، فسادّ جوّ من الجدّية، ربما حصل ذلك استجابة لملامح السيّد الجادّة.

همس أحد التلاميذ بأدب: يا سيدنا أظن بأن الوقت متأخر. سوف يرتفع الأذان.

قال السيد متبسماً: لقد جاولت المجيء ولكني لم استطع لذا أعتذر اليكم.

ـ ماذا حصل يا سيدنا؟

ـ تعلمون ان الحاج حسين القمي قد أُبعد الىٰ العراق بعد حادثة «جوهرشاد» وقد عاد الىٰ ايران، وفور وصوله طهران قدّم الىٰ الحكومة لائحة باقتراحات وتوصيات منها حرية الزيّ وعدم اجبار النسوة على خلع الحجاب[1]، تدريس القرآن الكريم والأحكام الشرعية في المدارس الحكومية. وقد رفضت الحكومة مطالبه، وتوالت البرقيات المؤيدة من قم وطهران، ولكن الحكومة أدارت ظهرها لكل ذلك، وقد طلب مني بعض علماء قم وطهران التدخّل لإسناد موقف القميّ والتوجّه الىٰ طهران لتعزيز الموقف، ولكن أولاد عمي وبعض أقاربي حالوا دون ذلك، ورأيت من الصالح ان تتدخل العشائر بإرسال برقيات مؤيدة لمطالب القمي، واذا ما أصرّت الحكومة علىٰ رفضها فسوف أتوجّه الىٰ طهران، وليحصل ما يحصل بعد ذلك.

والحمد لله فقد تراجعت الحكومة واضطرت لقبول مطالب الشعب.

جفّف السيد جبينه من حبّات العرق، وأردف:

ـ وقد أبرق اليّ القمي انه يريد السفر الىٰ العراق معرباً عن تقديره لموقفي، وعندما سمعت أنه وصل ملاير أسرعت للقائه مُرَحِّباً بقدومه،

---

(١) كان رضاخان متأثراً بأتاتورك زعيم تركيا الحديثة خاصة لدى زيارته لأنقرة، فحاول انتهاج سياسة مشابهة، ولقد أحدثت مسألة الحجاب ضجّة كبرىٰ زعزعت حكم الشاه في وقتها. ـ المترجم.

فعدت كما ترون متأخراً.. والآن يبدو ان عذري مقبول..

ابتسم التلاميذ وساد المكان جوّ من الخشوع وهم يصغون الىٰ صوت الأذان ينساب من منائر المدينة.

عيادة

الحاج كاظم خان وميرزا محمد ولي أمين التجار وجمع من المؤمنين في طريقهم الىٰ منزل السيد. تمتم أحدهم في اذن صاحبه:

ـ ألم تستفسر من الحاج أحمد عن مرض السيد؟

ـ أخبرني ان الاطباء نصحوا بالجراحة في العاصمة.

عندما وصلوا قرب المنزل كان السيد يتّجه بمساعدة ذويه الىٰ سيارة واقفة تقلّه الىٰ طهران.. وكانت ريح خريفية خفيفة تجوس أزقة المدينة.. ودمعت العيون المودعة، وحزنت القلوب التي شعرت بأن قلباً ينبض بحبّ الناس سيفارقها عمّا قليل.

أين نحن الآن

ـ اسرع أرجوك، الحالة خطيرة جداً، همس الدكتور في اذن السائق وحبّات عرق تلمع في جبينه.

أجاب السائق:

ـ لايمكن قيادة السيارة أسرع من هذا، سنصل صباحاً.

ـ علىٰ بركة الله.

وفي هذه اللحظة أفاق السيد ونظر الىٰ مصابيح تبرق من بعيد فسأل بصوت واهن:

ـ أين نحن الآن؟

أجاب الطبيب:

ـ لقد اجتزنا قم يا سيدنا.

هتف السيد:

ـ حالتي جيدة أرجو العودة الىٰ قم للزيارة.

وأدار السائق مقود السيارة باتجاه قم.. ويؤدي السيد مراسم الزيارة وتستأنف السيارة رحلتها تطوي الطريق باتجاه الشمال.

هتف السائق:

ـ لقد وصلنا والحمد لله.

علّق الدكتور:

ـ ستجرى لكم الجراحة يا سيدنا باذن الله. وبالطبع سأزوركم كلما سنحت الفرصة.

ترجّل السيد من السيارة علىٰ مهل والتفت الىٰ السائق شاكراً:

ـ لا أدري كيف أشكركم.

ـ لا شكر علىٰ واجب يا سيدنا نتمنىٰ لكم الشفاء.

وأخذ السيد طريقه الىٰ داخل المستشفىٰ تحفّه الممرضات بأرديتهنّ البيضاء.

الفصل الرابع

الطلوع الخالد

حديث الأصدقاء

سبعون يوماً تمرّ والسيد مايزال راقداً في المستشفىٰ.

تساءل أحد علماء طهران:

ـ سمعنا بأن الشاه قد زاركم؟

أجاب السيد وهو يرتشف عصير التفاح علىٰ مهل:

ـ أجل وكانت فرصة طيبة للحديث معه بشأن ما تكتبه الصحف والمجلات وما تدسّه من سموم أخلاقية منافية للاسلام.

ـ وماذا كان ردّه؟

ـ لقد وعدني بأنه سيمنع ذلك.

وأضاف مبتسماً:

ـ وانا أدرك تماماً انه لن يفعل ذلك لأنه عاجز تماماً، ومقاليد الأمر والنهي بيد أسياده وهو مجرّد أداة، والمأمور معذور كما يقال.

قال أحد اساتذة الحوزة في قم وقد كان ساكتاً:

ـ ما أمتع حديث الأصدقاء، الوقت يمر دون أن نشعر به... وأخيراً ياسيدنا هل قررتم القدوم الىٰ قم.

ـ حتىٰ صباح هذا اليوم كنت حائراً بين العودة الىٰ بروجرد أو الذهاب الىٰ قم، البرقيات تترىٰ من المدينتين والوفود، وكان ملاذي في هذه الحيرة في الاستخارة. ذهبت للتشرف بزيارة مرقد «عبد العظيم»[1] وكان الوقت بين الطلوعين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فتحت المصحف الشريف فظهرت لي هذه الآية من سورة «المؤمنون».

تناول السيد مصحفاً علىٰ الرف وراح يقرأ:

ـ ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فاسكنّاه في الأرض وانّا علىٰ ذهاب به لقادرون. فانشأنا لكم جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾.

تمتم أحدهم:

ـ يالها من اشارة! ترىٰ ماذا قصد السيد في استخارته؟

ـ الحق اني قصدت قم.

ـ واذن فقد عزمتم الاقامة في قم؟.

ـ نعم.

وارتفعت صلوات مفعمة بالفرح والأمل.

علّق أحدهم:

ـ أيّها السادة لقد استفسرت من الطبيب المشرف عن حالة السيّد فقال انه في حالة طيبة ويستطيع مغادرة المستشفىٰ متىٰ ما أراد.

---

(١) جنوب العاصمة طهران.

همس آخر:

ـ غداً الخميس والسفر في ليلة الجمعة والتشرف بزيارة السيدة المعصومة(عليها السلام)[1] وهو وقت مناسب.

ونهض الجميع مودعين وقد اشرقت ابتسامة في وجه السيد تعبّر عن امتنانه ورضاه.

في الطريق الىٰ قم

السماء تزدحم بغيوم شتائية، وريح باردة تذرو رمال السهل المنبسط، والسيارة التي تقلّ السيد واثنين من أساتذة الحوزة العلمية تنهب الطريق المؤدية الىٰ مدينة قم.

تساءل السيد:

ـ هل حان وقت الصلاة؟

ـ بقيت نصف ساعة تقريباً.. سيكون وقت الصلاة والغداء في «علي آباد» باذن الله.

ولاحت من بعيد حشود الناس التي حضرت لتحية السيد واستقباله. تمتم أسفاً.

ـ ليتكم لم تطلعوهم علىٰ الخبر.

ـ انهم يقومون بذلك مفتخرين، سنصل الىٰ علي آباد. هناك الاستقبال أكبر.

---

(١) فاطمة بنت الامام موسىٰ بن جعفر عليه السلام عالمة جليلة القدر ـ المترجم.

تجّار المدينة وأعيانها أخذوا علىٰ عهدتهم تهيئة طعام الغداء للمحلّة بأسرها.

موسىٰ بن عمران

قال ميرزا قاسم وهو يلتفت صوب الحاج مصطفىٰ المينابي:

ـ هل أنت متأكد من مجيء السيد هنا؟

ـ نعم لقد أخبرنا الاستاذ بذلك وأمر بفتح جميع الأبواب. ألا تسمع أصوات الصلوات.. انه قادم.. هيّا..

دخل السيد يحفّه مرافقوه، وما هي إلا لحظات حتىٰ غصّت جميع الحجرات بالناس..

همس ميرزا قاسم متسائلاً:

ـ لماذا تأخر السيد كل هذا الوقت.

أجاب أحدهم:

ـ الازدحام ياصاحبي... لايمكن للمرء أن يتقدم حتىٰ خطوة واحدة. المدينة تغصّ بالباصات والسيارات وحتىٰ الشاحنات.

كان السيد يحيّي الجماهير المحتشدة وقد بدت مشدوهة بمهابة رجل تشعّ ملامحه قبساً من نور الأنبياء. نهض شاعر من قلب الجموع وراح يشدو:

طلعة تشبه النبيين في الحُسن   ووجه مثل بدر التمام جمالا

أنت موسىٰ بن عمران ويدك   البيضاء علمٌ يضيء جلالا[1]

---

(١) الأبيات محاولة للتعبير عن معاني الأصل الفارسي ـ المترجم.

وتعالت أصوات الاعجاب من جنبات المكان، فيما كان الشاعر يستمر بالانشاد..

قال ميرزا قاسم مداعباً الحاج مصطفىٰ:

ـ ماذا هل انعقد لسانك؟ لماذا لا تردد: أحسنت.. أحسنت.

ـ ياصاحبي.. انما تقال أحسنت للشاعر عندما يوجز في شعره لا لصاحبنا.. انظر انه ما يزال يصرخ غير مكترث لشيء آخر.

ـ أنت لاتعرف قيمة الشعر وإلا لكان لك موقف آخر.. لو تدري كم عصر الشاعر قلبه وفكره ليصوغ هذه الكلمات.

والآن يريد ان يعصر قلوبنا وينتقم منّا.

ابتسم ميرزا قاسم علىٰ الرغم منه، وضاعت بسمته في ذلك الفضاء المفعم بالبسمات.

لا نعرف قيمة الماء

الحاج يحيى، والحاج محمد ولي ورئيس الذاكرين وشخصيات أُخرىٰ جاءت من بروجرد لزيارة السيد. كانوا يرتشفون الشاي. تمتم الحاج يحيى بمرارة وهو يخاطب خادم السيد:

ـ أرأيت يا حاج كيف فُقدنا السيد في وضح النهار!.

ـ لا تصعّب الأمور يا حاج.. لعل مصلحة الدين تقتضي ذلك، ولا تنسَ ان قم هي المركز.. والحاجة هنا الىٰ السيد أكبر.. بقاؤه في بروجرد يتحدد في بعض الدروس أو الصلاة في مسجد السلطاني.

ـ علىٰ كل حال اننا نأسف علىٰ فقده.. ان أحدنا لايعرف قيمة المـاء إلا عندما يفقده.

علّق رئيس الذاكرين:

ـان ما قاله الحاج أحمد هو الحق.. لتكن مصلحة الاسلام هي الاساس.. وإلا فان السيد لا يترك مدينة طيبة المناخ مثل بروجرد ويأتي الىٰ قم.. حيث الماء المالح والمناخ الجاف.

عقّب الحاج أحمد:

ـ وكما قال السيد الاشرافي انه لمن دواعي الفخر لبـروجرد ان تـنجب رجلاً مثله وتقدمه الىٰ الدنيا.. وأردف وهو يرصف الفناجين في الصينية:

ـ ولا تنسوا ان السيد سيمضي فصول الصيف في بروجرد، انه لم يـترك مدينته الىٰ الأبد.

قال الحاج يحيىٰ وهو ينهض مودعاً:

ـ أرجو أن تأذنلنا ياحاج.اذا كانت لديك وصية فـي بـروجرد فـنحن بالخدمة

ـ ولِمَ العجلة ألا تبقىٰ أياماً أخرىٰ.

ـ هناك قافلة من سيارات بروجرد علىٰ أهبة الرحيل. من الأفضل أن أعود.

مدرسة جوهرشاد

الهدوء والصمت يملآن المكان، ولم يكن في المنزل سوىٰ الحاج أحمد والسيد يرتشفان الشاي، سأل عن تاريخ اليوم.

أجاب الحاج أحمد:

ـ عشرون من شهرشعبان.. يعني قد مضىٰ علىٰ قدومنا من مشهد شهركامل..

وأردف وهو يسحب نفساً عميقاً:

ـ الطقس هنا أفضل بكثير من قم.

ـ نعم ومع هذا فإن علينا أن نعود، شهر رمضان المبارك يطرق الأبواب.

ـ ولكن ياسيدي الهواء طيب.. أنذهب الىٰ ذلك الحرّ اللاهب؟

ارتفع صوت قرب الباب:

ـ يا الله.. يا الله.

ـ تفضل يا حاج.

تقدم الشيخ علي أكبر النهاوندي بخطىٰ هادئة، صافح السيد بحرارة وأخذ مكانه قريباً..

ـ كيف الحال يا حاج؟

ـ بخير نحمد الله ونشكره.. سمعت بانكم قد زرتم المكتبة الرضوية.

ـ نعم انها مكتبة ضخمة تضمّ كتباً نادرة.. لايعوزها شيء سوىٰ الفهرست، وقد أوصيتهم بذلك...

وأردف وهو يتناول كتاباً من علىٰ الرف:

ـ انظر.. الىٰ هذا الكتاب..

ـ رجال الشيخ الطوسي.

ـ لقد يئست من الحصول عليه.. حتىٰ أني شرعت في اعداد كتاب يضمّ

رجال الشيخ.. والآن حصلت عليه..

ـ وهل قارنت بين الكتابين؟

ـ نعم.. هناك اختلاف بسيط، لقد فاتني بعض الأسماء وحسب.. وإلاّ فالكتاب يضاهي الأصل، اضافة الىٰ ان الكتاب الذي أعددته يحتوي علىٰ شروح ضرورية.. سكت هنيهة، وأضاف:

ـ الحمد لله فقد عثرت عليه قبل عودتي.

هتف الشيخ مأخوذاً:

ـ ماذا؟ عودتك الىٰ أين؟.. لقد حضرت من أجل ذلك.. أعني أن أهل خراسان يتمنون بقاءكم في مشهد وامضاء شهر رمضان المبارك علىٰ الأقل.

ـ لقد كنت اتحدّث مع الحاج أحمد في هذا الموضوع، وهو أيضاً يرىٰ انه من الأفضل البقاء.. غير أني ارجّح العودة.

ـ ماذا تقول يا سيدنا... انا وبالنيابة عن نفسي وعلماء خراسان وأهلها نطلب من سماحتكم البقاء في مشهد وامضاء الشهر المبارك هنا، وإمامة الناس في مدرسة جوهرشاد.

ـ ولكن..

ـ أرجوك ياسيدنا.. لا أُريد أن أرجع هكذا خالي اليدين.. دعني أنقل لهم هذه البشرىٰ. أطرق السيد هنيهة ثم رفع رأسه فاضاءت ابتسامة وجوه الجميع.

الصورة الأخيرة

صمت ثقيل يهيمن علىٰ منزل السيد، والشيخ مجتبى الكاشاني يـمسك بصحيفة «اطلاعات». التفت صوب سيد محمد حسين العلوي، صهر السيد وقال معلّقاً:

ـ ماذا قال السيد لدىٰ سماعه خبر وفاة السيد «أبو الحسن الاصفهاني»؟

أجاب سيد محمد:

ـ كان السيد في غرفته مشغولاً مع مير سيد علي الكاشي ببحث عـلمي فأخبروه بوفاة السيدالأصفهاني فانفجر منتحباً، لم تمرّ سوى لحظات حتىٰ تتابعت وفود المعزّين الىٰ المنزل، وتعطلت الحياة في المدينة بأسرها؛ وقد طلب السيد من الناس التوجّه الىٰ «الحرم» لتجديد البـيعة. وأردف السـيد متسائلاً:

ـ حقاً ماذا كتبوا في الجريدة؟

ـ لا شيء سوىٰ تعليق مقتضب علىٰ آخر صورة له.

قال سيد محمد وهو يتأمل الصورة:

ـ رحمه الله.. لقد أضحىٰ نحيلاً في أيامه الأخيرة!

ثم نهض وقال:

ـ سأطلع السيد علىٰ الصحيفة.. وسمع الحاضرون نشيجاً حزيناً، فتمتم البعض: ما كان على سيد محمد أن يفعل ذلك.

وهمس السيد بصوت خافت:

ـ لقد كان رجلاً عظيماً.. نهض بمسؤوليته وأدىٰ واجبه فجزاه الله عنّا خيراً.. وحشره مع الصديقين والشهداء.

نداء الغيب

كانت الأيام الأخيرة من شهر «آذر»[1] ورياح باردة تجوس أزقة «قم» والحاج شيخ علي أكبر النهاوندي الذي وصل توّاً من سفر بعيد يلج غرفة السيد الصغيرة:

ـ السلام عليكم.

ـ سلام عليكم ورحمة الله.. مرحىٰ.. مرحىٰ ياحاج.. مرحىٰ بمن ترك طوس وجاء الىٰ قم.

ـ القلوب تهفو اليك ياسيدنا ومعذور من يترك دياره ويأتي الىٰ قم.

ـ ماذا تقول ياحاج! والآن خبّرني كيف الأحوال!

ـ عندما كنت في مشهد أيام شهر رمضان أمضيت شهراً أو شهرين في مشهد ثم عزمت السفر الىٰ العراق لزيارة العتبات المقدسة.. مكثت مدة في النجف الأشرف.

ـ وكيف حال أهلها؟

ـ مزدحمة بأهلها والوافدين... وفاة المرحوم الاصفهاني ثم الحاج حسين القمي.

---

(١) الشهر التاسع من السنة الايرانية.

ـ كانا من أساطين الشيعة رحمهما الله.. وحق لمن يحزن من أجلهما الدهر كلّه.. ليرحمهما الله.

ـ والآن ياسيدنا لم يبق من أحد. سفينة الدين قد أضحت بلا ربّان يقودها الىٰ شواطئ الأمان.. الأبصار تتجه اليكم وعينا صاحب الزمان ترمقانكم.

ـ ماذا تقول يا حاج؟.

ـ أنا لا أهذي ياسيدنا.. بل أقول الحق وقد جئت لكي أروي لكم هذه القصة التي وقعت لي.

سعل الحاج واستطرد قائلاً:

ـ كنت في النجف يومها وكان الوقت مساء الخامس عشر من ذي القعدة، وآية الله الاصفهاني كان طريح الفراش، وقد عهد اليّ إمامة المصلين نيابة عنه.. فسمعت وانا علىٰ سجادة الصلاة في المحراب نداءً مهيباً يقول: «عظّمت ولدي عظمتك» فالتفتّ الىٰ صفوف المصلّين فلم أرَ من سمع ذلك النداء.. عندها أيقنت أنني المعنيّ بالخطاب وتذكرت بقاءكم في شهر رمضان، واستجابتكم لرغبتي.. ولعلّ هذا هو وراء تقديم المرحوم الاصفهاني لي علىٰ غيري.

كان السيد يصغي بخشوع.. وفي تلك اللحظات الروحانية كان أذان المغرب ينساب من فوق المآذن يدعو المؤمنين الىٰ الصلاة.. فنهضا معاً متوجهين نحو الحرم الشريف.

أنا أيضاً هرمت

فجر الثالث من مهر[1]، والسيد جالس في غرفته مع جمع من اساتذة الحوزة العلمية:

ـ ينبغي علىٰ الطلبة انتهاج الدقّة في الامتحان، ومن أحرز التوفيق ترتب له مزايا الحوزة ومكافأتها، وهناك موضوع آخر وهو الاهتمام بالخط والاملاء والانشاء والثقافة العامة، وكذا تاريخ الاسلام والتفسير، فعالم الدين في هذا العصر يحتاج الىٰ كل هذا، ولا تنسوا عامل التشجيع، فكل طالب يدرس جيداً أو يقدم خدمة لدينه سجلوا اسمه وسأُعيّن له مكافأة.

بادر أحد الاساتذة:

ـ سنطبق جميع ارشاداتك ياسيدنا.. والآن هل تأذن لنا بالانصراف.

وفي الاثناء دخل السيد راشد:

ـ السلام عليكم.

ـ سلام عليكم ورحمة الله.. كيف حالكم يا حجة الاسلام؟.

ـ نحمده.

ويجلس الرجل الذي بدت عليه آثار الشيخوخة، ناول السيد ورقة، وراح يتأمل ملامح السيد النورانية.

فضّ السيد الورقة وقرأ ما فيها، ثم التفت اليه قائلاً:

ـ أنت من تلاميذي في اصفهان.

---

(١) الشهر السابع من السنة الايرانية.

ـ أجل كنت أدرس «القوانين»[1].

ـ لقد هرمت كثيراً.. أنا أيضاً أصبحت شيخاً، ولكنك تبدو منكسراً أكثر.. أتذكر جوابي على اشكالك..

ـ نعم أذكر ومازال جوابك غير مقنع لي، وضحك الشيخان معاً وعلّق السيّد قائلاً:

ـ ليكن جوابي هو هو لم يتغير ولتبق على اشكالك.. ويستمران في الضحك..

ويدسّ السيد في جيب ضيفه مبلغاً من المال.. وعندها يهمّ السيد راشد مغادرة المكان ممتناً.. فيدخل أحد الطلبة في يده ورقة يناولها السيد ، ويلتفت السيد صوب راشد:

ـ انظر، هذا طالب يحفظ الألفية كلّها..

ـ أنا أيضاً مازلت أحفظها..

ويقرأ السيد بعض الأبيات فيكملها الطالب..

ويبتسم السيد مشجعاً:

ـ أحسنت.. أحسنت، تستحق مكافأة.. حاول أن تستمر بالحفظ ويناوله السيد مظروفاً يحوي بعض الأوراق النقدية.

ـ ياسيدنا أنا أتعجب من انك ما تزال تحفظها رغم تجاوزك الثمانين.

وينبري السيد راشد سائلاً:

---

(١) كتاب في الفقه.

ـ لدي سؤال حول بعض الأبيات الأخيرة من حيث البيان والبديع.

ـ ولكني لم أدرس هذه الفنون بعد.

ويبادر السيد:

ـ سأجيبك بالنيابة عنه.

ويبدأ السيد ببيان بعض الجوانب الأدبية، ويفتح راشد فاه دهشةً:

ـ مازلت تحفظ أشياء تعلمتها في الطفولة!!

ويدخل صهره سيد محمد حسين العلوي، ويسأل:

ـ سيدنا هل تصفحتم الكتاب الذي أحضرته لكم عصر أمس؟

المراجعات؟ لقد قرأته كلّه.

ـ قرأت مئتي صفحة؟ مع كل هذه المشاغل.. أما تعبت؟

ـ بالعكس، المطالعة لا تتعبني أبداً.. بل انني عندما أشعر بالتعب ألجأ الى المطالعة للترويح عن النفس.

حكم بالاعدام

لم تكد شمس الثالث عشر من شعبان تلامس الأفق الغربي حتىٰ كان السيد صدوقي ممثل السيد في مدينة يزد يدخل غرفة السيد مبهور الأنفاس.

هتف السيد:

ـ خيراً ان شاء الله.

ـ ياسيدنا! الأمر في غاية الخطورة.

ـ ماذا حصل؟!

ـ خلاصة الأمر ـ ياسيدنا ـ أن أحد البهائيين يلقىٰ مصرعه على يد اتباع فرقته ثم القيت تبعة القتل علىٰ جمع من الشباب المؤمن، ثـم يـقوم القـتلة بمساع محمومة بنقل ملف القضية الىٰ طـهران وهـناك يـقدمون الرشـاوي الكبيرة، فيحاكم أحد الشباب المسلم بتهمة القتل ثم يحكم عليه بالاعدام، وهو الآن في زنزانة انفرادية انتظاراً لتنفيذ الحكم في يوم الخامس عشر من شهر شعبان.

ـ ومن أين حصلت علىٰ هذه المعلومات؟

ـ كانت مجرّد مصادفة.. فقد أوصت المحكمة بالقائه في زنزانة انفرادية ولم تكن هناك زنزانة خالية، فأُلقي مع جماعة ريثما تفرغ احدى الزنزانات، وهناك يلتقي هذا الشاب المؤمن بأحد أقاربه صدفة فيروي له القـصة مـن أولها، ويقوم هذا الشخص بنقل هذه القضية الىٰ أهله.. وهكذا وصل الخـبر لي.

ـ ياله من زمن عصيب!! يعدم أحد اتباع صاحب الزمان بتهمة قتل عدو صاحب الزمان في ذكرىٰ ميلاد صاحب الزمان!!

وهتف السيد:

ـ ياحاج محمد حسين! يا حاج محمد حسين..

ويسرع سكرتير السيد.. ليسطر رسائل الى الشاه ورئيس الوزراء وآيـة الله البهبهاني ويحمل الحاج أحمد رسائل السيد الىٰ طهران، ودقت أجراس التليفون في أماكن عديدة من العاصمة.. وقد بدا السيد فـي ذروة اهـتمامه

وقلقه.. وتأتي الأخبار في منتصف ليلة الخامس عشر من شعبان بإلغاء حكم الاعدام فيشكر الله تعالىٰ.

ويدخل أحد ذويه:

ـ مازلت مستيقظاً ياسيدنا؟!

ـ الحمد لله لقد انتهت، ولكن كلما فكرت أجد نفسي مسؤولاً أمام الله عن كل دماء الأبرياء التي تهرق دون حق.. ماذا سيكون جوابي يوم الحساب اذا ما تكررت مثل هذه التجاوزات.

ـ وماذا فعلوا بهذا المسكين؟

ـ لقد خففوا الحكم الىٰ المؤبد مع وعدٍ بإطلاق سراحه.

نسيم الصبا

كانت السماء يوم الخامس عشر من شعبان زرقاء ونسائم ربيعية تدور في الأزقة، وجموع الطلبة تتجه الى منزل السيد لتقديم التهاني، وتعالت في الفضاء صلوات وأناشيد الذكرىٰ العطرة لميلاد المهدي المنتظر وهي تحمل الىٰ المستضعفين والفقراء بشائر الحب والأمل.

كان أحد المدّاحين ينشد وبصوت عذب كلّه ثناء على السيد. فجأة انقطع صوته.

تساءل سيد تقي الذي وصل توّاً عن السبب. أجاب أحدهم:

ـ لقد أشار السيد عليه بالجلوس.

ولِمَ.. لقد كان صوته عذباً.

ـ يبدو ان السيد لا يرتاح للمدائح الشخصية.. يريدها خالصة لصاحب الذكرىٰ، سكت الرجل هنيهة وأردف:

ـ أمر هذا السيد عجيب! في العام الماضي وفي مناسبة ميلاد الامام الصادق(عليه السلام) انبرىٰ أحد الشعراء وأنشد أبياتاً في غاية الرقة وتوقع الجمهور ان يهبه السيد جائزة، وتجرأ بعضهم فطلب من السيّد ذلك ولكن السيد رفض، أجاب بأن الشاعر يبالغ في مديحي.. وفي الاثناء نهض رجل كفيف فاتجهت اليه الأبصار، همس السيد تقي:

ـ هذا هو الشيخ يوسف سيصدح بنغمات داوودية.

يانسيم الصبا مر على واحة   الورد واحمل لنا الياسمينا

وارتفعت الصلوات من جنبات المكان فامتزجت بروائح العطر.

مال أحدهم هامساً:

ـ هل تدرس عند السيد يومياً؟

أجاب السيد تقي:

ـ نعم، ولِمَ؟

ـ يالك من محظوظ! كل يوم تطالع هذا الوجه البهي الذي ينضح نوراً وطيبة ومهابة، أتدري ماذا قال وزير الأوقاف المصري لدىٰ زيارته السيد؟ قال جواباً علىٰ سؤال: ماهو رأيك في الزعيم الشيعي؟ أجاب الباقوري: أعظم شخصية رأيتها في عمري، ولقد بلغ تأثر الوزير المصري بشخصية السيّد انه تحمّل نفقات طبع كتاب «المختصر النافع» للمحقق الحلي في مصر.

سأل السيد تقي متعجباً:

ـ هل تسكن في قم؟

ـ نعم.. أدرس الأدب الفارسي.. يحق لنا ان نفخر بهذا الرجل العظيم، قرأت قبل أيام نصّ المقابلة التي جرت بين السيد وبين «آرشوتونج» سكرتير الهيئة الدولية لمكافحة المشروبات الكحولية.

ـ حول أي موضوع؟

ـ لقد سأل السيد عن بواعث تحريم الاسلام للمشروبات الكحولية، فأجاب السيد: ان الله كرّم الانسان بالعقل، ووضعه على طريق التكامل، ومن أجل صيانة هذه الجوهرة الإلهية شرع لها قانوناً يحميها من التغييب والشلل، ولذا فان كل شراب بل كل مسكر يحجب دور العقل من اداء دوره فهو حرام.

وقد بلغ من اعجاب المسؤول الدولي أن صرّح للصحف ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي يحرّم تحريماً قاطعاً تناول المشروبات الكحولية.

ـ نعم لقد أحيا السيد أمر الدين في مصر، فقد بادرت دار التقريب بين المذاهب، وبعد اتصالات السيد بالشيخ محمود شلتوت الىٰ اعلان المذهب الامامي أحد المذاهب الاسلامية التي يجوز التعبد بها. أرجو ان تسمح لي بالانصراف. فالساعة تقارب الحادية عشرة.

ـ الحادية عشرة.. أنا أيضاً يتوجب عليّ الانصراف.

ـ لنذهب معاً اذن.

وفي الطريق، قال مدرس الأدب الفارسي.

ـ حقاً سمعت بهدية الملك سعود، ولكن لا أدري ماذا كانت.

ـ كانت صندوقاً كبيراً فيه خمسة عشر نسخة من المصحف الشريف وقطعة من ستائر الكعبة وأشياء أخرىٰ حملها مبعوث الملك الخاص، وقد قبل السيد المصاحف وستارة الكعبة وردّ الهدايا الأخرىٰ مع رسالة يعتذر فيها عن قبول هدايا الملوك، وأوصىٰ الملك بالسعي لوحدة المسلمين.. لقد سمعت ذلك من أحد العاملين في مكتب السيد، وقد نشرت رسالة الاسلام المصرية الخبر.

ويصل الرفيقان مفترق طريقين.

قال الاستاذ:

ـ أرجو أن تسمح لي. يتوجب عليّ الذهاب الىٰ ميدان «كهنه»[1] . في أمان الله.

ـ في رعاية الله.

ويواصل السيد تقي طريقه فيما ينحرف مدرس الأدب الفارسي جهة اليمين.

أعلىٰ من الشاه

شمس يوم الجمعة لم تتوسط السماء بعد، والسيد تقي الحسيني جالس في غرفته يقدم فناجين الشاي لأصدقاء جاءوا لزيارته، تمتم متأسفاً:

ـ ليتك حضرت درس الأصول عند السيد.

---

(١) القديم.

ـ لِمَ عطّل السيد درس العصر؟.

ـ وقته لايسمح. انه مشغول طوال الوقت. في الصباح يـدرّس «الفـقه» وفي العصر «الاصول» وفي المساء «الرجال»، وترده مئات الرسائل يومياً، ثم لقاؤه الناس، ومقابلة العلماء والمسؤولين، أضف الىٰ هذا تفقّد المدارس والطلاّب في داخل وخارج البلاد والمساجد والمكتبات، كل هذا والرجل قد جاوز الثمانين بأعوام.

همس الشيخ أحمد: ألا توجد لقمة خبز نتجرع بها الشاي؟ لقد عصرنا الجوع.

علّق أحدهم ساخراً: ماذا تقول؟ احمد الله علىٰ هذا الشاي وإلاّ فان سيد تقي سيسجل عدده ثم يتقاضاه منّا في المستقبل.

نهض أحمد وتناول سفرة ملفوفة ونظر باتجاه الرف.

ـ مرحىٰ.. مرحىٰ ياله من خبز شهي... الأمر يحتاج الىٰ قطعة جبن.

تناول سيد تقي علبة زجاجية من فوق الرف:

ـ تفضلوا يا سادة انها وليمة دسمة. أليس كذلك؟

ـ نعم ولقد أثبت اليوم سخاءك الكبير. وينفجر الجميع ضاحكين..

التفت أحمد صوب سيد تقي وسأل:

ـ حقاً لم استطع حضور درس الفقه أمس.. هـل سـجّلت شـيئاً يـمكن لاستفادة منه؟.

ـ بالتأكيد! سأحضر لك الدفتر.

ـ هل تعرف ياسيد تقي هذا الرجل الذي يظهر تعلّقاً شديداً بالسيد.

ـ تقصد الرجل الضخم الجثة؟ وحيد الرومي!

ـ نعم.

ـ سمعته يوماً يتحدّث عندما سئل عن سبب ذلك، فقال انه من أهل الشمال، وقد جاء الى قم لغرض الدراسة فأجرىٰ له السيد مرتباً فاعتذر الرجل عن قبول ذلك متعلّلاً بما يملكه من أرضٍ في الشمال. وفي أحد الأعوام عصف الجفاف بالأرض فلم تدرّ له شيئاً فاضطر الىٰ الاقتراض وتراكمت الديون فراح يبيع بعض أثاثه ثم قرر أن يعرض فراش البيت كله للبيع فدفعوا له مبلغاً بخساً لايسدّ الدين فبقي حائراً لايدري ماذا يفعل. وبينا هو كذلك اذا بالباب تطرق، واذا الطارق الحاج أحمد وبيده مظروف سلّمه اياه وانصرف، فلما فتح المظروف وجد فيه شيكاً بمبلغ القروض..

ـ ومن أين عرف السيد ذلك.

ـ حتىٰ وحيد الرومي لايدري أيضاً.

ومن ذلك اليوم أجرى له مرتباً يتقاضاه كل شهر.

علّق سيد تقي:

ـ لقد شهدت بنفسي حادثاً أعجب من هذا.. تعرفون ميرزا حسين الصادقي التبريزي الذي يسكن في «خاكفرج»[1].

ـ نعم حدثني ذات يوم عن مراجعته مع زوجته لأحد الأطباء لما دنا وقت الوضع، وكانت ولادة صعبة وقد قال له الدكتور متفاخراً: لولاي لماتت

---

(١) محلة في مدينة قم.

زوجتك مع وليدها، ولذا أطلب منك أن تسمي الوليد باسمي (اسماعيل). وقد وافق ميرزا حسين على ذلك. ومن ذلك الوقت بقي الصغير ضعيفاً عليلاً مدّة شهرين. وصادف ان ذهب ذات مرّة للقاء السيد الذي بادره قائلاً: مالي أراك مهموماً؟ فصارحه بأمر الرضيع وحيرته في أمره، فقال السيد دون سابق معرفة بقصّته مع الطبيب: غيّر اسمه وسيشفىٰ بإذن الله..

ـ وماذا حصل بعد ذلك؟

ـ سماه أميراً، وتمرّ الأيام وتتحسن صحة الصغير.

ـ أمر عجيب.. عجيب حقاً.

وفي الاثناء يدخل عماد مير حسيني وهو يحمل حزمتين من الكتب، وينهض سيد تقي مرحباً:

ـ أهلاً بزميلي العزيز... أعرّفكم بأعزّ اصدقائي وزميلي في الدراسة في تبريز.. كنّا في حجرة واحدة. وينهض الجميع احتفاءً بالقادم الجديد الذي أخذ مكانه قرب السفرة.

ـ وصلت في الوقت المناسب؟ أليس كذلك؟ بعد أن حظيت برؤية الوزير في مكتب السيد البروجردي.. وأشكر الله انني رأيت وزيراً قبل أن أموت.

ابتسم محمد رضا معلّقاً:

ـ واذن يجب أن تشكر الله أكثر لأنك لست في حضرة وزير واحد، فأمامك الآن وزيران آخران، بل قل شاهان.

ـ أعلىٰ من الشاه.

قال سيد تقي مخاطباً عماد:

ـ لا تعجب يا صاحبي.. فأصدقائي هؤلاء قد أجّروا الطابق العلوي من أبدانهم.. صحيح اننا أفضل حالاً من الوزراء فلم يصل بنا الفقر لأن نبيع أثاثنا، أما اولئك الوزراء فقد باعوا بلادهم.

ـ يا جماعة للحيطان آذان... ومن يلعب بذيل الأسد لابد وان يتلقىٰ صفعته..

قال سيد تقي ذلك خاتماً حديث السياسة وأردف مخاطباً عماد:

ـ أي الوزراء رأيت؟

ـ وزير الثقافة بصحبة رئيس تحرير صحيفة «اطلاعات».

ـ مسعودي؟

ـ نعم مسعودي.. وقد حدثني من رافقهم في اللقاء ان وزير الثقافة قبّل يد السيد.أما مسعودي فلم يفعل ذلك.. وبعد ان انتهت كلمات التعارف تحدّث السيد حول مهنة الصحافة وتأريخها وأول صحيفة، فانبهر الحضور بسعة اطّلاع السيد.. ولما انتهىٰ اللقاء بادر مسعودي الىٰ توديع السيد ثم تقبيل يده باحترام، وسمعه البعض يقول خارج المنزل: «لقد تحدّث السيد البروجردي كما لو كان صحفياً بارعاً».

قال ميرزا أحمد: في الحقيقة ان السيد رجل موسوعي في العلوم.. قبل أسبوعين كنت جالساً في منزل السيد انتظر قدوم سيد تقي، رأيت شخصاً يخرج من غرفة السيد، عرفت فيما بعد انه اللواء «رزم آرا» وكان قد عرض اختراعه وهو عبارة عن بوصلة تشير الىٰ جهة القبلة، وقد تحدّث السيد معه في مسائل فلكية دقيقة بهرت «اللواء» الذي امتلأ اعجاباً بشخصية السيّد

وصرّح بذلك لأحد مرافقيه قائلاً: كنت أتصور ان السيد مـجتهد فـي الفـقه والأصول ويبدو انه متمكن في علوم أخرىٰ، فقد تحدّث عن مسائل فلكية ورياضية دقيقة لا تتوفر حتى لدىٰ الاساتذة المختصين.

وانفضّ الجمع بعد أن أشارت عقارب الساعة الىٰ الثانية عشرة ظهراً.

الاخلاص وحده

ـ للأسف اننا نملك ثروة كبرى الاّ اننا نفتقد وسيلة للتوزيع؛ فلدينا تراث ضخم من الروايات مغيّب في مطويات الكتب، وهـذه ثـروة مـجمدة، ولو تحوّل جزء من هذه الثـروة الىٰ «رأسـمال» لانـتشر الاسـلام، انـنا نـجهل الاستفادة من هذه الثروة. لماذا لانملك ممثلين في أوربا وأمريكا وأفريقيا؟ ومن هنا فأنا أفكر بإرسال من يمكن الاعتماد عليهم الىٰ مختلف دول العالم.

كانت كلمات السيد تنساب قوية مؤثرة في محفل ضم مختلف عـلماء واساتذة الحوزة، اشار السيد الىٰ أحدهم واستطرد:

ـ السيد محققي مثلاً أرسلته الىٰ هامبورغ وحقق نجاحاً بعد اجتيازه بعض الصعوبات التي تنجم عادة عن الغربة، وتمكن من احتضان المسلمين هناك، والآن المسلمون في ذلك البلد ينعمون بجلسات القرآن ودروس الأحكام، كما تجرى لهم مراسم الزواج والدفن بالطريقة الاسلامية، اضافة الىٰ توفير اللحم الحلال باستخدام طريقة الذبح الشرعية. وبالطبع ان هذا الأمر يتطلب نفقات باهظة. فالمنزل مثلاً يتطلب مبلغ خمسة عشر ألف مارك أرسلت اليه مبلغ عشرة آلاف وهيأ له التجار المسلمون هناك ما تبقى من المبلغ.

وكان هذا الشرح فرصة للسيد محققي فأشار الى مهمته في المانيا والصعوبات التي يواجهها هناك من قبيل التنقل بين المدن..

همس السيّد:

ـ هل عندك سيارة؟

ـ للأسف لا.. في بعض الأحيان اطلب ذلك من معارفي هناك.

مال السيد على محمد حسين سكرتيره:

ـ اخبر مسؤول الشؤون المالية أن يوفّر سيارة للسيد محققي.

ثم وجه السيد خطابه للحاضرين:

ـ أنتم أيها الاساتذة المحترمون عليكم ان تربوا أفراداً مؤهلين لعالم اليوم.. ان صفات التواضع والالتزام والمعرفة هي ما ينشده الناس اليوم من العلماء.... لقد وصلتني رسائل عديدة من بلدان مختلفة من العالم من أندونسيا، انگلترا، امريكا، فرنسا، ودول أفريقيا، والشرق الأقصىٰ، كلها تطلب ارسال علماء ومرشدين، وللأسف فان بعض الرسائل تبقى دون جواب مدّة عام.. ولحد الآن أرسلنا السيد «البلاغي» الىٰ انگلترا، والسيد «شريعة» الىٰ باكستان، و «الفقيهي» الى المدينة المنورة، و «الصدر» الىٰ لبنان، كما اخبرت الشيخ مهدي الحائري بالاستعداد للسفر الىٰ أمريكا، في حين بقيت بلدان عديدة دون مبلِّغ أو مرشد.

دخل الحاج أحمد يحمل صينية الشاي..

استأنف السيد حديثه بعد أن ارتشف جرعة من الشاي:

ـ وهناك موضوع آخر أحببتُ ان أخدمكم به وهو توثيق العلاقات مع

اخواننا أهل السُنة، نحن جميعاً مسلمون واخوة، ولذا ينبغي ان لانوفر فرصة للعدو في التدخل واحداث الفتنة بيننا. علينا ان نتجنب كل شيء من شأنه أن يحدث الفرقة بين الأخوة .. أوصوا الجميع بالانسجام مع اخوانهم في مراسم الحج، والالتفات الى بعض المسائل الدقيقة مثلاً، اننا نستخدم التربة في السجود، فما معنى هذه الاسماء والخطوط التي نشاهدها مطبوعة عليها... ان اعداء الاسلام يشيعون اننا نسجد للتربة لا علىٰ التراب.. ان علاقاتنا اليوم مع اخواننا أهل السنة جيدة، إلاّ أننا ننشد الأفضل، ولقد أوصيت السيد القمي الذي يعمل في دار التقريب بمصر ان يكون همّه الاساس الوحدة.

استطرد السيد قائلاً:

ـ الموضوع الثالث الذي أودّ التأكيد عليه هو تشجيع كل من يقدّم خدمة للاسلام حتىٰ يدرك الجميع ان هناك من يقدّر جهودهم وخدماتهم.. حتىٰ أولئك الذين يخدمون الدين وان لم يكونوا مسلمين بهذا نعلّمهم ان هذا الدين يرعى كل من يقدم خدمة خيرية... أرجو من الجميع ابلاغي عن كل مدرسة ترعى الاصول الاسلامية لكي يتسنىٰ لنا تقديم بعض المساعدات التي من شأنها تعزيز البرامج التعليمية فيها.

علّق الشيخ محسن معجباً:

ـ نشكر الله سبحانه علىٰ وجود شخصية مثل..

قاطعه السيّد:

ـ أنت لاتكفّ عن ترديد كلماتك القديمة.

ـ أنا لا أقول إلاّ الحق... لقد حدّثني أحد أصدقائي قائلاً: التقيت آية الله

الاصفهاني في اخريات أيامه وكان ذلك في بعلبك فقلت له: ياسيدنا الموت حق فقال: هذا صحيح ولكن ماذا تعني من وراء ذلك؟ قلت له: فمن سينهض بزعامة الشيعة بعدكم؟

فأشار الىٰ عمامته وقال: لقد كنت مأموراً بحفظ هذه، وسيكون البروجردي بعدي في القيام بهذه المهمة..

أردف الشيخ محسن:

ـ وهكذا ياسيدنا فعندما اسمع حديثكم أتذكر كلمات الاصفهاني رحمه الله.

تمتم السيد مطرقاً:

ـ اذا كنت من سيحاسبني يوم القيامة فما أهون ذلك.. ولكن الله المطّلع علىٰ حقائق الأمور وبواطن النفوس هو الذي سيحاسبني، وهو لا ينظر الىٰ ظواهر الأمور بل ينظر الىٰ الاخلاص في العمل.. الاخلاص هو طريق النجاة في ذلك اليوم.. الاخلاص وحده.

مبارك وجوده

كان الحاج مرتضىٰ «السوهاني»[١] يرتشف شايه عندما قال:

ـ الحمد لله، لقد كانت إرادة الله، وإلاّ فأين قم من بروجرد وأين بروجرد من قم.. لقد كنّا محرومين من نعمة الماء والكهرباء والطرق المعبدة... أما الآن فشبكة مياه الشرب تشمل المدينة كلها، الكهرباء أفضل من السابق،

---

(١) السوهان نوع من الحلوىٰ تشتهر بصناعته مدينة قم ـ المترجم.

شبكة الطرق المعبدة توسعت، وضع المستشفيات تحسّن بشكل كبير، الآن يعمّر المسجد الأعظم[1].. أطال الله عمره.انه لايتوانىٰ عن إغاثة كل مكروب.. دائماً يكرر لتلاميذه ويحمّلهم المسؤولية في عدم اطلاعه على المشاكل التي تعتور الطلاب وغير الطلاب..

هزّ كربلائي حسين رأسه مؤيداً:

ـ انه يرفض الهدايا إلا من الفقراء.. بالأمس رأيت ميرزا كاظم الدواتجي وكانت حاله سيئة فأخبرت السيد بذلك فأعطاني مبلغاً لأوصله له، وقد أخبرني ميرزا كاظم بأنه قد تسلّم حتىٰ الآن ثلاث حوالات من قبل السيد هذا اليوم، فقلت اذن اطلع السيد لعلّه كان غافلاً عن ذلك..

وعندما ذهب الىٰ السيد قال: لابأس كنت أعرف ولكن رأيت أن حالتك تستوجب ذلك... ان وجوده بركة للجميع.

قال الحاج مرتضىٰ مبتسماً:

ـ اذا كان وجوده بركة للجميع فانه بركة مضاعفة لكم معشر الكسبة.

ـ ماذا تعني؟

ـ لا شيء سوىٰ أن الاقبال علىٰ الشراء قد تضاعف هذه الأيام، فقم تزدهر يوماً بعد آخر، طلاّب العلم يفدون من كل مكان حتىٰ وصل عددهم أكثر من ستة آلاف، ووفود الزائرين تأتي من كل صوب وهي بالآلاف أيضاً.

ـ أنت لا تفكّر إلا في هذا الجانب.. ثم اننا ندفع بين فترة وأُخرىٰ بعض

---

(١) من المساجد المشهورة في ايران يمتاز بقبته التي تعدّ أكبر قبّة في البلاد

الحوالات للسيد لكي تصرف في مواردها الشرعية..

وهنا يدخل بعض الزبائن فيضع نهاية للحديث.

الذكريات الخالدة

كان السيد مشغولاً بتناول افطاره، والىٰ جانبه ابنه الأكبر محمد حسن يتصفح احدىٰ الصحف.

ـ ألا تتناول إفطارك؟

ـ لقد اكتفيت يا أبي..

وأردف وهو يشير الىٰ خبر في الصحيفة.

ـ انظر يا أبي هذا الخبر: في دنيا الطب يعدّ آية الله البروجردي أول شيخ في الثمانين من عمره يطالع دون نظارات طبية.

تمتم السيد بخشوع:

ـ الحمد لله..

وأردف وهو يستند الىٰ وسادة:

ـ انها من بركات الامام الحسين (عليه السلام).. أنا احتفظ من بروجرد بثلاث ذكريات، الأولىٰ: انني ابتليت بألم شديد في عيني عجز الأطباء عن علاجه، وجاء شهر محرّم الحرام وبدأت كالعادة مواكب العزاء في عاشوراء، كان البعض يخضب رأسه ولحيته بالطين، وكنت وقتها متأثراً بشدّة مأخوذاً بلوعة كربلاء ومصاب الامام الحسين (عليه السلام) فنهضت لاستقبالهم وأخذت من بعض ذلك الطين ووضعته علىٰ عيني، ومن تلك اللحظة زال الألم فلم

اشتك من عيني وجعاً حتىٰ اليوم..

غرق السيد في أفكاره وذكرياته وانتبه على صوت نجله:

ـ والذكرىٰ الأُخرىٰ يا أبي؟

رفع السيد رأسه مستأنفاً حديثه:

ـ والثانية: انني كنت راكباً دابّتي فعثرت اثناء الطريق وسقطت من فوق الدابّة وقد لقيت الأرض بيدي اليمنىٰ فانكسر ابهامي ولم أتمكن من الكتابة بيدي اليمنىٰ.

ـ ولهذا تكتب بيدك اليسرىٰ يا أبي.

ـ نعم.. بعد تمرين طويل.. والذكرىٰ الثالثة: هي انني كنت أعنّف بشـدّة كل تلميذ يتكلم اثناء الدرس ثم اشعر بالندم بعد ذلك.. فنذرت يوماً إن فعلت هذا صوم سنة كاملة لعلّي أترك هذا الخُلق.. ومرّت أيّام وحدث ان عـنّفت تلميذاً تعنيفاً قاسياً.. فصمت عاماً كاملاً جرّاء ذلك.

ـ عاماً كاملاً؟

ـ نعم يابني..

خيّم صمت علىٰ المكان.. وأراد الأبن أن يغيّر من مجرىٰ الحديث:

ـ حقّاً أين وصلت مسألة الاصلاح الزراعي؟

ـ بل سمّها الدمار الزراعي، الشاه يبيّت خطة للقضاء علىٰ زراعة البلاد، وقد أبرق اليّ بذلك، فنصحته بالاقلاع عن هذه الفكرة.... ثم أرسـل الشـاه رئيس وزرائه علّه يتمكن من اقناعي، وتحدث هو ووزراؤه وذكروا ان هذه الاصلاحات قد نفذت في عدة بلدان اسلامية بعضها بلدان جـارة لنـا، وان

ايران وحدها التي تخلفت عن الركب. فأجبتهم: ان تلك البلدان قد طوت ومنذ مدة بساط الملكية واذا كان على ايران ان تلتحق بركب تلك البلدان فعليها ان تبدأ أولاً بإلغاء النظام الشاهنشاهي... وبالطبع لم يكن لديهم جواب بعد هذا فغادروا المنزل.

ـ نسيت أن أقول لك يا والدي ان أحد علماء «گرگان»[١] قد تساءل عن عدم وجود مؤلفات للسيد بالرغم من شهرته الواسعة.. وقد أجابه ميرزا حسين التبريزي بالعكس لديه مؤلفات عديدة منها: حاشية علىٰ كفاية الأصول، حاشيته على نهاية الشيخ الطوسي، وحواشي علىٰ مستدركات فهرست الشيخ منتجب الأمين الرازي وحواشي علىٰ كتاب المبسوط، كتاب يتعلق بالأُسر العلمية الشيعية، ورسالة حول سند الصحيفة، مستدرك في رجال الشيخ، اسانيد كتب التهذيب، ومن لايحضره الفقيه، والاستبصار، الخصال، الامالي، تجريد أسانيد علل الشرايع، فهرست الشيخ الكافي، كتاب في الفقه من الطهارة الىٰ الديات... وراح يعدد له الكتب وأخيراً قال له ان السيد قد دعا بعض العلماء لإعداد كتاب جامع الأحاديث الشيعية.. وقد تعجّب الرجل وقال: لِمَ لا يطبع السيد كتبه؟ فأجابه ميرزا محمد حسين: ان السيد يعتقد بأن هناك كتباً أحرىٰ بالطبع من كتبه.. وقد طبع حتىٰ الآن أي منذ أربعة عشر عاماً أكثر من ثلاثمئة كتاب.. وقد أعرب الرجل عن استعداده لطبع الكتب حالما يسمح السيد بذلك.

---

(١) من مدن الشمال الايراني.

رفع السيد رأسه:

ـ اخبر ذلك العالم بأن كتاب «جامع الأحاديث» قد أُعدّ للطبع.

ونهض السيد متجهاً الىٰ مكتبته.

الخيار باللبن

جنحت شمس الخامس عشر من شهر رمضان للمغيب.. وسيد تقي في منزل ميرزا حسين التبريزي يتناول طعام الفطور.. قدم ميرزا فنجان الشاي لضيفه:

ـ وهذا شاي مهيّل أُعدّ خصيصاً لسيد تقي.

كان سيّد تقي يتناول ثريدته المعدّة من حساء اللحم عندما قال:

ـ لقد مضىٰ شهر كامل على غياب السيد عن صلاة الجماعة، أليس كذلك؟

ـ نعم كان يوم الخامس عشر من شعبان عندما تقرّر افتتاح مكتبة المسجد الأعظم، فعثر السيد في باحة منزله فانخلعت ساقه اليمنىٰ وانكسر ابهامها، فبقي طريح الفراش حتىٰ اليوم حيث توجّه بمساعدة البعض الىٰ المسجد الأعظم لاداء صلاتي الظهر والعصر.

ـ وهل افتتحت المكتبة أخيراً؟

ـ بالطبع لا... وقد أُثيرت المسألة اليوم وتقرر طبع بطاقات دعوة جديدة ليوم السابع من شوال.

ـ نسأل الله له الشفاء.. الحق يُقال ان للسيد حقاً في رقابنا جميعاً.. لقد بلغ

من اهتمامه انه يطالع الصحف والمجلات فاذا قرأ شيئاً يتنافىٰ مع الدين أمر بإعداد ردّ مناسب.. وقد حدث ان قرأ السيد قبل أيام موضوعاً في مجلة مصرية فأوصىٰ أحد العلماء بإعداد ردّ يفنّد آراء الكاتب، وقبلها طالع موضوعاً في مجلة هندية حول تأثير الأديان خاصة الديانة البوذية في الاسلام.. فقال: لا تقفوا مكتوفي الأيدي أجيبوهم.. ولعلك تذكر كيف هاجم اتباع احدىٰ الفرق الضالّة في يزد امرأة تدعىٰ «صغرىٰ» وقتلوا صغارها ثم فرّوا.. لقد سلب الحادث النوم من عينيه وظلّ يتصل هنا وهناك الىٰ ان وقعوا في قبضة العدالة وحكم علىٰ بعضهم بالإعدام.

ـ ان رجلاً تتدفق عليه الأموال من كل صوب ولا يمدّ يده اليها بل يعيش علىٰ ريع أرض له في بروجرد لجدير بالإجلال... اني لأذكر ذات يوم وقد دخلنا عليه انا وصهره دون ميعاد فوجدناه يتناول غداءه وكان عبارة عن خيار باللبن فاستنكر صهره ذلك قائلاً: أليس هنا طعام أفضل من هذا، خاصة وقد أصبحت شيخاً طاعناً في السن. فأجاب بعبارة لا أنساها أبداً، قال: لقد روّضتُ نفسي على هذا الطعام مدّة ثمانين سنة، أتريدون تغييري الآن؟..

لماذا كففت عن الطعام.. أنت لم تأكل جيداً .

ـ الحمد لله.. بارك الله فيكم ورحم موتاكم.

ـ يرحم الله موتىٰ المؤمنين.. وأردف وهو يطوي السفرة:

مهما تحدثنا عن هذا الرجل فحديثنا قاصر. وحسب علمي فانه حتى الآن ساهم أو دعم بناء مئة وأربعة وثلاثين عمارة في طهران وأكثر من ألف

مسجد ومدرسة ومستشفىٰ ومكتبة عامة وحمام في ايران والعراق ولبـنان وأفريقيا وأوروبا.. كل هذا وطعامه الخيار باللبن!

ـ نسأل الله بحرمة الامام الحسن (عليه السلام) الذي تـصادف الليلة ذكـرى ميلاده المبارك أن يطيل عمره الشريف.

ـ حقاً.. لقد تحدثت مع السيد بشأن العمل الخيري الذي أوصيتني به وقد قال السيد:

ـ انظر كم يكلّف ذلك لأكتب حوالة بشأنه.. كم تـقدّر المـصاريف فـي رأيك.

ـ أنا أترك المسألة لتقديركم.

ـ حاول أن تقدّر بنفسك ثم بكّر غداً في الصباح الى المكتب وسأهيئ لك حوالة السيد.. وبعدها تذهب وتأتي بعروسك الىٰ البيت. مبروك لك من الآن.

ـ اشكرك وأرجو ان تسمح لي بالإنصراف.

ـ سأنتظرك صباحاً.

ـ في أمان الله.

الفصل الخامس

الرحيل

رداء الحزن

نهض سيد تقي من نومه في منزله الذي أجّره حديثاً، تناول افطاره على عجل وخاطب زوجته:

ـ لسنا في تبريز يا امرأة.. ليس لدينا قريب، لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد.. قولي ماذا تريدين حتىٰ أحضره لك.. أنا علىٰ عجلة من أمري.

ـ ماذا حصل ياتقي.. لقد وصلنا أمس من تبريز ألا تستريح قليلاً؟ ستلحق بدرسك.

ـ سأعود بسرعة.. ومن قال اني سأذهب الىٰ الدراسة.. لقد سمعت صباحاً بأن السيد مريض.. قلت أذهب لعيادته.

ـ اذن لاتنسىٰ أن تجلب قليلاً من اللحم والبصل والبطاطس.

ـ حسناً.. في أمان الله.

ـ والخبز أيضاً.

قال وهو يصفق.

ـ والخبز أيضاً..

ويسرع سيدتقي مجتازاً بعض الأزقة فيوصل نفسه الى ميرزاحسين.

ـ سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.. كيف الحال ياسيد تقي؟

ـ الحمدلله. حقاً كيف حال السيد؟ لقد سمعت بأن صحته ليست علىٰ مايرام.

ـ كان وقتها ليلة الجمعة في المسجد الأعظم، وكان الفلسفي يتحدث على المنبر، ولم تكن حاله طيبة. وعندما عاد الى المنزل شعر وهو يرتقي درجات السلّم بأن قلبه يدق بعنف فيجلس ملتقطاً أنفاسه، ثم تحسنت حالته في الصباح حيث نهض لاداء الصلاة، فشعر برغبة في القيء وهو علىٰ الوضوء.. نعم ياسيد تقي كنت وقتها تسرح وتمرح في تبريز ونحن هنا في حالة انذار.

ـ وماذا قال الأطباء؟

ـ الدكتور صباحي وكذا الدكتور قراغلزلو رئيس مستشفى نيكوئي من قم.. والدكتور نبوي والدكتور قائمي من طهران، اضافة الىٰ دكتوره الخاص مدرسي، أجمعوا علىٰ انها جلطة قلبية شديدة.

ـ نسأل الله له الشفاء، انه والحق يقال ربّان سفينتنا.

ـ الله هو الشافي.. في يوم الجمعة الماضية زاره الطبيب وحقنه ابرة منشّطة.. فتح عينيه قليلاً وخاطب السيد فلسفي: هل سافر الشيخ محمد تقي القمي الىٰ مصر؟

ـ أجابه الفلسفي: توتر العلاقات بين البلدين حال دون ذلك. فتمتم السيد بصوت واهن: لقد سعيت كثيراً في تمتين العلاقات بين المسلمين وبنيت علىٰ ذلك آمالاً كبيرة، سأكتب رسالة الىٰ الشيخ شلتوت من أجل ان يسعىٰ

في تنقية العلاقات وإعادة المياه الىٰ مجاريها.. بعدها أغمض عينيه.

ـ ورأي الطب في حالته؟! هل..

ـ لاسمح الله.. الله وحده العالم.. الدعاء ياسيد! الدعاء.

ـ أنا ذاهب.. هل لديك حاجة؟

ـ كلا... اخبر أهلي ألا ينتظروني علىٰ الغداء.

ـ حسناً.. في أمان الله.

اذهبوا لتناموا

الوقت بعد منتصف الليل بقليل، والسيد محمد حسين العلوي صهر السيد جالس الى جانب السرير متكئاً بمرفقه الىٰ السرير يحاول تفادي النوم. الخادم أيضاً كان جالساً في زاوية من الغرفة يتأمل وجه السيد، وهالة النور من حوله، وبين الفينة والأُخرىٰ تنفتح الباب وتظهر بعض النسوة تستفسر عن حالة السيد.

فتح السيد عينيه:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الساعة الثانية عشرة والنصف.

ـ ماذا تنتظرون اذن.. اذهبوا لتناموا.

ـ أنت ياسيدنا لم تعتد النوم في السرير فقلنا ربما يتحرك فيسقط.. لهذا تناوبنا علىٰ مراقبتك.

أغمض السيد عينيه مرّة أُخرىٰ.. انتابته آلام في القلب واجتاحته رغبة

في أن يتقيأ..

الطبيب الذي كان حاضراً حقنه ابرة مسكّنة.. فتحسنت حالته قليلاً وغطّ في نوم عميق..

بعد ساعة فتح السيد عينيه وتمتم:

ـ اذهبوا لتناموا...

ـ هناك وقت كافٍ للنوم ياسيدنا.

ـ كما قلت، انصرفوا لتناموا.

ـ حسناً سننام.

قال صهر السيد ذلك وأدرك الاّ فائدة من الاصرار فتمدّد علىٰ السجّادة الىٰ جانب السرير.

البروفيسور موريس

شمس يوم الأحد السادس من فروردين[1] لم تتوسط السماء بعد، وقد مضت عشر ساعات علىٰ النوبة القلبية التي اجتاحت السيد.. والبرقيات تترىٰ من انحاء البلاد تستفسر عن صحته وتظهر عميق الأسف والدعاء بالشفاء العاجل، والسيد يجيب معرباً عن تقديره وشكره.

البروفيسور موريس استاذ القلب في جامعة باريس الذي قدم الىٰ طهران لإجراء فحوصات خاصة هو الآن في طريقه الىٰ قم.

---

(١) الشهر الأول في التقويم الايراني.

همس الدكتور نبوي باحترام:

ـ الاستاذ موريس قدم من باريس الىٰ طهران بناءً علىٰ اتفاق سابق، وقد سمع بتدهور حالتكم الصحية فجاء لعيادتكم، هل تسمحون له؟

ـ لا مانع من ذلك.

بعد مدّة تدهورت حالته فأُجريت له اسعافات فورية، ويصل البروفيسور فيستأذن له الدكتور نبوي.

ـ كلا.. لا تدعوه يدخل.

ـ لماذا يا سيدنا؟!

ان حالتي كما ترىٰ لا تسمح لي باستقبال فرد أجنبي... أنا أمثّل الاسلام ولا أُريد أن أبدو ضعيفاً أمام...

وبدا السيد متأثراً جداً، ويدرك المحيطون به مرام المرجع الكبير.. فيسرعون الىٰ ترتيب الحجرة ووضع ملاءات وأغطية جديدة ويرتدي السيد عمامته بعد أن اتكأ الىٰ وسادة عالية...

ويدخل البروفيسور الذي سارع الى اجراء فحوصات دقيقة.. ويشخّص الحالة:

انفاركتوس في القلب، ورم حادّ في الرئة، انسداد أحد الشرايين، وبعد علاج سريع تراجعت حالة القيء وانتظمت دقات القلب وتحسنت حالته العامة، وصدر أول بيان طبي:

«ان حالة حضرة آية الله العظمىٰ البروجردي حسنة جدّاً وقد أمضىٰ ليلة طيبة، وفارقته الحمّىٰ اليوم بحمد الله».

وفي الساعة العاشرة والنصف من مساء الثلاثاء عقد اجتماع ضمّ كل من البروفيسور موريس والدكتور «نبوي» والدكتور «مدرسي» والدكتور «مساوات» رئيس الصحة العامة في قم، والدكتور «موسوي» رئيس الصحة في قوات الدرك، وأسفر الاجتماع عن تأكيدات حول تحسّن صحة السيد وان حالته تدعو الىٰ الرضا.

وعمّت الفرحة أنحاء البلاد وأُقيمت الاحتفالات شكراً لله سبحانه وأُضيئت المصابيح الملوّنة في شوارع المدينة.

وبعد ثمانية وأربعين ساعة، غادر البروفيسور مدينة قم المقدسة محملاً بهدايا ثمينة.

تيستا

كان عصر الأربعاء التاسع من «فروردين» دافئاً، الدكتور «نبوي»، وسيد محمد حسن وسيد أحمد نجلا السيد، وسيد محمد حسين صهره جالسين في الغرفة. قال الدكتور وهو يطالع صحيفة اطلاعات:

ـ انظروا ما قال البروفيسور لمراسل الصحيفة الذي سأله عن انطباعه لدىٰ زيارته ايران. أجاب لقد عشت ساعات في قم لا تنسىٰ، أؤكد عميق تأثري بشخصية آية الله البروجردي، لقد كانت روحه الكبيرة تملأ نفسي ولا أذكر انني هبتُ أحداً كهيبتي لتلك الشخصية الفريدة.

علّق أحد الحضور: اذكر انه تحدّث الىٰ السيد بكلمات لم أفهمها.. ماذا كان يقول:

أجاب الدكتور: قال للسيد: لقد تأثرت بشخصيتكم الروحية واني لأشعر بعميق افتخاري بكوني أحد الذين ساهموا في علاجكم.. اني أشكر الله علىٰ ذلك ولو سمحتم لي لتوجهت الىٰ أحد المساجد من أجل الدعاء لكم.

وهنا رن جرس الهاتف ؛ وهتف أحدهم:

ـ سيادة الدكتور هناك من يطلبكم... يبدو انه أجنبي.

ـ ألو! تفضلوا.

ـ ألو! أنا تيستا مراسل احدىٰ الصحف الامريكية.. لقد وصلت من بيروت وأُريد أجراء مقابلة مع آية الله البروجردي.

لم تمضِ دقائق حتىٰ ظهر في الباب شاب ذهبي الشعر، عرّف نفسه مرّة أخرىٰ:

ـ تيستا مراسل احدىٰ الصحف الامريكية.

ـ حالة السيد لا تسمح بالمقابلات.. الآن.

قال سيد محمد حسين وهو يرحّب به.

ابتسم المراسل:

ـ اذن هل يمكن الاجابة علىٰ بعض الأسئلة؟

ـ تفضلوا.

ـ هل يمكنكم ان تحدثونا كيف يعيش؟

ـ حياته منظمة جداً.. ينهض قبل الفجر بساعتين.. يؤدي صلاة الليل، بعدها يطالع حتىٰ أذان الفجر.. فيقيم الصلاة.. ثم يتلو القرآن.. وبعدها يعود الىٰ المطالعة.. بعدها يتناول افطاره؛ وهو في الغالب يتألف من الخبز والجبن،

ثم يعود الىٰ المطالعة مرّة أخرىٰ حتى الساعة العاشرة متهيئاً لإلقاء الدرس الذي يبدأ الساعة العاشرة، ويحضر درسه حوالي ألف طالب، وبعد هذا يستقبل الناس حتىٰ اذان الفجر حيث يؤدي الصلاة ثم يتناول غداءه، ثم يجلس لقراءة الرسائل التي تصله يومياً فيقرأ ما بين سبعين الىٰ مئة رسالة فيسجّل علىٰ مظروف كل رسالة، الموضوعات المطلوبة واعداد أجوبتها. بعدها يستريح قليلاً.. ثم يستقبل بعض الأشخاص حتىٰ الغروب.. يتناول عشاءه بعد الصلاة.. ثم يطالع قليلاً أو يستكمل اجابة بعض الرسائل الباقية، يبقىٰ هكذا حتىٰ منتصف الليل ثم يأوي الىٰ فراشه لينام حوالي ثلاث ساعات.. يخصص يوماً من كل اسبوع للاجابة علىٰ الرسائل الخاصة، ويوماً آخر للاجابة علىٰ المسائل الفقهية.

ـ وأين هو الآن؟

ـ ينقسم المنزل الىٰ قسمين، قسم يستقبل فيه الناس ويمارس فيه نشاطاته العلمية، وقسم آخر لأُسرته.

ـ وهل القسم الآخر خرب وقديم كهذا!؟

ـ بل أسوأ.

ـ هل يمكنني القاء نظرة هناك؟

ـ نعم تفضل.

وقاد صهر السيد مراسل الصحيفة عبر القبو الىٰ الجانب الآخر..

ـ وأين السيد الآن..

ـ نائم في غرفته.

ـ أرجو أن تسمح لي برؤيته ولو من الباب.

ـ تفضل.

أجال المراسل بصره في أطراف الغرفة، وقال متأثراً:

ـ أمرٌ مدهش!! أيعيش مثل هذا العظيم في منزل بسيط متواضع كهذا؟!.. وأردف:

ـ هل زرت الفاتيكان؟ لو ذهبت لسوف ترىٰ في أي قصر منيف يعيش البابا زعيم المسيحيين الكاثوليك. واستطرد وهو يتحسس الجدار القديم:

ـ الشيعة لايحتاجون الىٰ دعاية أو تبشير، يكفي أن تصوروا كيف يعيش هذا الرجل، فهذا وحده سيشدّ انظار العالم اليكم.

مايزال الوقت مبكراً

الساعة الثامنة والنصف، معاون رئيس الوزراء، المحافظ، ومدير الأمن، جلوس في غرفة السيد. وتبادل الحضور عبارات العيادة، وعندما أرادوا الانصراف تمتم السيد:

ـ تعشوا أوّلاً ثم انصرفوا.

نهض السيد العلوي وقاد الضيوف الىٰ غرفة أُخرىٰ، بعد مدّة فتح السيد عينيه وخاطب صهره:

ـ هل تعشيت؟

ـ نعم.

ـ والسادة الضيوف؟

ـ نعم.

ـ هل كان الطعام كافياً؟!

ـ السفرة عامرة والحمد لله.

ـ الحمد لله... لا تتركهم وحدهم.

ـ السادة موجودون.. والطعام يكفي.. ثم ان احداً لاينتظر استقبالاً خاصاً وأنتم في هذه الحالة.. يكفي أن يتناول أحدهم كسرة خبز تبركاً.

ـ هنا يكمن الخطأ.. أنتم تعيشون هنا في المنزل وأولئك الناس ضيوف.. ان الاسلام والانسانية توجبان الاهتمام بالضيف مهما كان شأنه.

وينصرف الضيوف.. ويغمض السيد عينيه، ويغطّ في نومٍ عميق.

في منتصف الليل يفتح عينيه ويسأل عن الغد، فيجيبه أَحد ذويه:

ـ الخميس.

قال السيد بصوت مرتعش:

ـ ليلة الجمعة! والساعة كم الآن؟

ـ الواحدة والنصف.

ـ مايزال الوقت مبكراً.

ويدعو زوجته: أُريد كفني...

وتحضر زوجته الكفن وهي تكفكف دموعها.. وتتأمل زوجها العظيم الذي راح يقلّب كفنه وينظر الىٰ تربة الحسين (عليه السلام) التي دسّها في طيّاته.. ويعيد الكفن الىٰ زوجته قائلاً:

ـ ضعيه في مكان قريب ربما احتجته غداً في الصباح..

ويغطّ السيد في نومه.. وتمرّ الساعات والدقائق وينساب الاذان من منائر الحرم كنهر هادئ مفعم بالطمأنينة والسلام.

ويشدّ أحد ذويه يده علىٰ يد السيد.. ويفتح السيد عينيه.. فيصغي الىٰ الأذان في خشوع.

وينهض السيد يتيمّم.. ويؤدي صلاة الفجر.. ويدخل الدكتور مدرسي الذي ظل ملازماً له طيلة تلك المدّة.

ويتمتم السيد:

ـ رأيت فيما يراه النائم اني بنيت لنفسي في أطراف امام زاده جعفر في بروجرد بيتاً أكبر من جميع البيوت..

ويستطرد السيد سائلاً:

ـ ماهو طعامي اليوم؟

ويجيب سيد محمد حسين العلوي:

ـ لا أدري.. أأحضر لك قدحاً من الحليب!

ـ ولِمَ لا.

ويتدخل الدكتور معترضاً:

ـ الحليب ؛ لا.. لا.. انه يستثير حالة القيء، يكفي فنجان من الشاي الخفيف.. ويتناول السيد شايه.. ويشحب لونه وتجتاحه رغبة في أن يتقيأ.. وتشتد آلامه..

ويبادر الأطباء الىٰ اسعافه.. فيتمتم السيد بصوت متقطع:

ـ انه الموت... الموت حق.. دعوني يا الله.. لا إلٰه الاّ الله، لا إلٰه إلا الله، لا إلٰه

إلاّ الله. ويتوقف القلب الكبير عن الخفقان الىٰ الأبد.

أبو المجد

الساعة الواحدة ظهراً من يوم الخميس، والجثمان الطاهر ساكن في نفسه بلا حراك، بعد تسعين سنة من الجهاد المتواصل.

لو ألقيت نظرة من فوق أسطح الأبنية المطلّة علىٰ الشارع لشاهدت زورقاً يطوف فوق أيدي الجماهير يشقّ طريقه باتجاه الحرم ومن ثم المسجد الأعظم حيث مثواه الأخير.

كان ميرزا حسين يسير حزيناً وسط المشيعين وتمتم في اذن صاحبه:

ـ في السابعة والنصف لفظ أنفاسه الأخيرة.. وغسل جسده الزكي في حمام صغير بمنزله، وانتهت مراسم الغسل والكفن الساعة الحادية عشرة والنصف، وأعلنت الحكومة اليوم عطلة رسمية في جميع أنحاء البلاد.. ثم همس بشيء لم يفهم صاحبه ميرزا طاهر.

فسأل: ماذا قلت؟

ـ لا شيء سوىٰ اني تذكرت «أبو المجد» ممثل دار التقريب في المؤتمر الاسلامي عندما توجّه لزيارة السيد رحمه الله إذ أنشد قصيدة كان مطلعها

شدّوا الرحال الىٰ الامام الأكبر فسقوا بحضرته رحيق الكوثر
عدلاً وصدقاً ما أقول وليتني أقضي الحياة مع الامام الأشهر

ثم يختم قصيدته بهذا البيت:

الله كرّمني بزورة فاطم والناس بين مهلل ومكبر

همس ميرزا طاهر:

ـ سيعيش الشاه هادئ البال بعد هذا.. يفعل ما يحلو له.. يغيّر من مواد الدستور ما يشاء، يطبق قانون الاصلاح الزراعي.. ليس هناك من يعترض طريقه.

ـ لا تيأس ياصديقي.. لاتيأس.. الله موجود.

ذكرىٰ صديق

كان سيد حبيب الله يكفكف دموعه عندما قال:

ـ ليرحمه الله.. كان رجلاً قلّ نظيره..

الأبن يتأمل في وجه أبيه وقطرات من الدمع تتلألأ فوق لحيته البيضاء، سأل ببراءة:

ـ سمعت أمي تقول ان السيد البروجردي كان علىٰ ارتباط مع صاحب الزمان!!

ـ نعم يا ولدي.. ما في ذلك شك.. انا نفسي وقفت علىٰ هذه الحقيقة.

ـ كيف!!

ـ كنت مع رفيق لي اسمه حسن... لعلّك تعرفه.

ـ الرجل النحيل الطويل!

ـ نعم.. كنّا نذهب معاً الىٰ جمكران[1] في ليالي الجمعة.. لعلنا نحظىٰ بلقاء

---

(١) مسجد كبير علىٰ مسافة ستة كيلومترات عن قم.

صاحب الزمان. ومرّ عام كامل لم نوفّق فيه الىٰ ذلك.. وذات ليلة جاءني حسن وعرض عليّ الذهاب فامتنعت، وقلت له: لقد يئست من لقائه.. لكنّه أصرّ فذهبنا سيراً علىٰ الأقدام، في الطريق لاح لنا رجل له هيئة الفلاحين.. فدخل في روعي انه صاحب الزمان فقلت لصاحبي اذهب واطلب منه شيئاً؛ فانطلق حسن اليه وطلب اليه ذلك، فوهبه مسكوكة ثم التفت اليّ مخاطباً: أما أنت فحاجتك لدىٰ السيد البروجردي. اذهب اليه لدىٰ عودتك وقل له: لِمَ الغفلة عن حال فلان بمصر؟

بعدها ذهب الرجل وبقينا نتأمل حائرين، نظرت الىٰ المسكوكة فلم أجد فيه شيئاً سوىٰ علامة تشبه علامة الضرب..

وبعد ثلاثة أيام توجهت الىٰ منزل السيد البروجردي، فبادرني قائلاً: اين كنت كل هذا الوقت؟؟ لقد كنت بانتظارك!!

فاعتذرت اليه بمشاغل حالت دون ذلك.

فقال لي: حاجتك عندي.. تريد السفر الىٰ كربلاء لزيارة الامام الحسين(عليه السلام).. ثم ناولني مبلغاً من المال يكفي لسفري.. فأخذته وأخبرته برسالة الامام.. ثم سألته عن جواز السفر، فقال لاتحتاج اليه.. ردّد هذا الدعاء ثم علّمني دعاءً.. وقال لي: سيوفقك الله لعبور الحدود دون مشاكل.

سأل الأبن: وهل زرت كربلاء؟

ـ نعم يا بني.. ذهبت بسلام وعدت بسلام.. والأعجب انني وصلت قبل رفاقي ممن كانت لديهم جوازات سفر.. لقد بقوا علىٰ الحدود أياماً عديدة.

وأردف الأب وهو ينظر الىٰ ابنه بحنان:

ـ حسناً يابني.. لديك غداً امتحان.. فلتذاكر درسك جيداً.

ـ غداً امتحان الجغرافيا، وقد قرأت الكتاب ثلاث مرات يـا أبـي.. كـما أوصتني أمي أن أشتري خبزاً.

ـ اذهب يا بني ولا تنسَ ان تشتري لي قـرصي اسـبرين، رأسـي يكـاد يتصدّع..

في حسرة البحر

مرّ اسبوع علىٰ رحيل آية الله العظمىٰ السيد البروجردي، والسيد عـماد مير حسيني الذي قدم من تبريز لتشييع الجثمان الطـاهر هـو الآن يسـتعد للعودة، قال مخاطباً سيد تقي:

ـ ليتني وفّقت للمجيء الىٰ قم والدراسة علىٰ يده.. يا للحسرة.. البـحر المتلاطم في قم وأنا في تبريز ظامئ.

ـ لا تبتئس يا صديقي.. ان علومه ماتزال باقية وها هم تلاميذه يسطّرون دروسه كتباً طبع بعضها باجازة منه مثل: «البدر الزاهر فـي صـلاة الجـمعة والمسافر»[1]، و «نهاية التقرير»[2].

ـ سمعت بأن منهجه في التدريس كان فريداً.

ـ الحق معك.. كان منهجه جديداً، ففي تدريس الفقه يسوق آراء الشيعة

---

(١) لآية الله المنتظري.

(٢) لآية الله فاضل اللنكراني.

والسُنّة، مدارك الفتوىٰ.. والبحث في طرق الاستدلال.. وفوق كل هذا التحقيق في الجذور التاريخية للمسألة.. لهذا كان الفقه يحظىٰ باهتمام فائق، بحيث كان يحضر درسه أكثر من ألف طالب[1]، جاءوا من أنحاء ايران المختلفة.

قال سيد عماد وهو ينهض:

ـ لو تفضلت عليّ بشراء الكتب التي ذكرتها ومن ثم ارسالها اليّ في تبريز.

ـ حسناً، بشرط ان تبلّغ تحياتي للجميع.

ـ في أمان الله.

ـ في رعاية الله.

السيد والحاكمون

كان سيد تقي يقشر خيارة بسكين صغيرة عندما قال:

ـ منذ مدّة وأنا أتوق لزيارتك.

قال ميرزا حسين مبتسماً:

ـ انه لطف منك يا صديقي.. وكان من الأفضل أن تأتي بالأسرة لنتناول

---

(١) من تلامذته: الشهيد المطهري، البهشتي، رباني، فاضل اللنكراني، السبحاني، المكارم الشيرازي، الصافي الگلبايگاني، اكرم پناهى، ستودة، الأميني، المحسني، النوري، الطسوجي، المنتظري... وغيرهم.

غداءنا معاً.

ـ الحقيقة في بيتنا ضيوف حماتي وابنها، قدما من طهران.. وقد ذكر لي انه كان جالساً في مجلس الفاتحة الذي أقامه الشاه علىٰ روح المرحوم، وسمع الخطيب يقول ان السيد البروجردي كان علىٰ علاقة وطيدة مع الشاه.

ـ هل يعيش أخو زوجتك في طهران؟

ـ نعم.. وقد جاء مع والدته لدىٰ عودتها الىٰ قم..

ـ أرأيت ياسيد تقي كيف يملأون قلب السيد قيحاً في حياته، فاذا مات ادعوا بأن لهم علاقات طيبة معه!!

قال سيد تقي معلّقاً:

ـ الحق.. ان السيد لم يكن بعيداً عن الحاكمين.

ـ لم أكن لأتوقع هذا من طالب يدرس لدىٰ السيد، للأسف ياسيد تقي.. أنت في الحقيقة غافل عمّا يجري خلف الستائر.. واذا أردت أن ترىٰ بوضوح فان الشاه في عيني السيد لم يكن سوىٰ رجل أُمّي لا عقل له، قال ذات يوم لرئيس الوزراء:

ـ ان أباه (يقصد رضاخان) كان أُمّياً، ولكنه يملك قدراً من العقل، أمّا هذا فيفتقد كل شيء.

لقد كان السيد رحمه الله مضطراً لمداراته.. كان في بعض الأحيان يرفض لقاءه.. ذات مرة سمع السيد ان الشاه أمر بتوقف القطار في قم لدىٰ عودته من خوزستان لزيارة السيد.. وعندما سمع المرحوم بذلك قال منزعجاً: لعلّه يريد التقاط الصور معي لضمّها مع الصور التي التقطها مع امرأته.

كان السيد يدرك مرامي الشاه وكان يقف في وجهه بحزم.. اذكر ان الشاه فكّر ذات مرّة بتغيير الحروف العربية الىٰ اللاتينية وقام بالتهويل لمشروعه.. ووقف السيد معترضاً قائلاً: ان الهدف من وراء ذلك هو ابعاد الأمّة عن ثقافتها الاسلامية.. وأنا لن أسمح بذلك ما دمت حيّاً.. وليحصل ما يحصل..

ـ ولكن السيد كان يؤيد الشاه أحياناً؟!

ـ كانت المصلحة تقتضي ذلك.. السيد يدرك تماماً أن مقاليد الحكم لم تكن كلها في يد الشاه، الاجانب لهم نفوذ ويوجّهون الضغوط تلو الضغوط لتعيين مسار الحكم.. اذكر مرّة ان أحدهم بعث برسالة الىٰ السيد في داخلها صورة للشاه مع زوجته وهي سافرة كما تعلم، فعلّق السيد قائلاً: ان صاحب الرسالة لايعي اني أدرك كل ذلك.. ولكن ما العمل والشاه ضعيف امام الضغوط الأجنبية.. وليس من المصلحة ان تضعف الدولة.. الروس يتربصون، الغرب، امريكا، كل هؤلاء يريدون لهم مكاناً في ايران.. فاذا شعر الشاه بأنه قد أصبح ضعيفاً في الداخل.. وان عرشه يهتزّ رمىٰ بنفسه في أحضان الأجانب.. لهذا ينبغي مداراته حتىٰ لاينساق وراء أهداف الأجانب، انه ما يزال شاباً وللشباب غروره، ثم اننا لا حول لنا.. الأمّة ليست يداً واحدة.. ونحن ما نزال ضعفاء.. مرّة نشتدّ في مواجهته لكن ليس الىٰ الحد الذي يحدث القطيعة.. لأنني أدرك تماماً ان الناس لن يقفوا معنا حتىٰ النهاية.

ـ أمرٌ عجيب.. هل كان السيد يعتقد هذا؟

ـ أجل.. وكان يقف الىٰ جانب الحركة الثورية، ويؤيدها.. أتذكر كيف عارض تقديم آية الله الكاشاني الىٰ المحاكمة.. بعد أن تقدم الشكاة باستيفاء مبلغ اثني عشر الف تومان كانت بذمة الكاشاني.. وتدخل السيد وأرسل

مبلغ اثني عشر الف وخمسمئة تومان. السيد يتحرك وفْق مصلحة الاسلام.. مثلاً: الزواج من الكتابية في رأي السيد حلال ولكنه عندما سمع بأن الشاه يريد الزواج من فتاة ايطالية.. «أصدر السيد فتوىٰ بحرمة ذلك» مـدركاً ان زواج زعيم البلاد من فتاة غير مسلمة سوف يضرّ بمصالح الأمة.. وكان نصّ الفتوىٰ: «ان المشهور بين كبار فقهاء الامامية حرمة الزواج من الكتابية».

ـ واذن ينبغي توضيح ذلك للشعب حتىٰ لاينخدع بألاعيب الحكام.

ـ هذا واجب الجميع. ينبغي توعية الأمّة.. لتكون بمستوىٰ المسـؤولية. أحياناً أفكر اننا فقدنا الرجل المدبّر.. الذي يشخّص الطريق الحق..

ذات مرّة سمع السيد أن أحدهم ينوي طبع كتاب له جمع فيه الفقه علىٰ شكل قصائد شعرية. علّق السيد: ان طبع مثل هذا الكتاب حرام. ولما سُئِلَ عن سبب ذلك، أجاب بأنه قرأ في مقدمته اهانة موجهة الىٰ بعض الخـلفاء، وهذا يوجّه ضربة للوحدة بين المسلمين.. ومرّة سمع ان أحد الخطباء كان يتحدّث من علىٰ المنبر حول خلافة علي بن أبي طـالب (عليه السلام).. وهـاجم الخليفة الأول والثاني والثالث وقال السيد مستاءً: في الوقت الذي تـهاجم فيه اسرائيل المسلمين وترتكب المذابح والمجازر مـا مـعنىٰ اشـعال نـار الحرب بين الشيعة والسُنّة.

نعم هكذا كان البروجردي.

ـ لقد كانت سفرته خاوية الاّ من بعض ما يسدّ الرمق.. بالرغم مـن انـهار المال التي تتدفق عليه.. جاءه يوماً بعض الحفاة فأمر لهم بمبلغ.. وان تذبح

لهم قرابين يقتسمون لحومها.. فلما صار وقت الغداء ذلك اليوم رأىٰ في سفرته لحماً مشوياً فسأل عنه فأجاب أحدهم قطعة من تلك اللحوم.. فرفض تناوله قائلاً: أعطوه للفقراء.

ـ يشاع في طهران ان المراجع والعلماء يعيشون حياة البذخ كما يعيش الحكام، وهي شائعات يحاول المستعمرون بثّها بين عامة الشعب في محاولة لتسقيط علماء الدين.

تمتم ميرزا حسين:

ـ لعلّك تودّ ان تعرف كيف كان يعيش السيد وأُسرته؟ كان الخبز الذي يتناوله السيد من النوع الرديء، وقد أشار بعض ذويه علىٰ الخباز ان يعتني قليلا بذلك، أجابهم: ماذا بوسعي أن أفعل؟ الطحين الذي يجلبونه لي من بروجرد نوعيته رديئة، فاذا اردتم خبزاً أفضل فاجلبوا طحيناً افضل. وقد عرضوا الأمر علىٰ السيد فرفض ذلك.

أهكذا يعيش الحاكمون؟

أم تريد ان أحدثك عن أولاده إذ جاء أحدهم يطلب من السيد مبلغاً لتسديد قيمة كتاب اشتراه ابنه، فقال السيد: ليس من المناسب أن يشتري أحمد كتاب «منظومة السبزواري» بمبلغ خمسة وعشرين توماناً، فمن أين لي الآن أن أدفع قيمة الكتاب؟!.

أهذه حياة الترف التي يدّعيها المغرضون؟

واذكر مرّة أنه جاء أحدهم الىٰ السيد يطلب منه اضافة المبلغ الذي

يتقاضاه أولاده، فقال الرجل معلّقاً: هذا ما طلبه نجل آية الله.

أجاب السيد منزعجاً: محمد حسن ما يزال طالباً ما معنىٰ ان يكون ابناً لآية الله، ثم ان ايراده يبلغ اثني عشر توماناً، في حين يبلغ ما أنفقه أنا مع كثرة مصاريفي أربعة عشر توماناً فقط..

أردف ميرزا حسين آسفاً:

ـ عذراً لقد انسقت وراء الحديث حتىٰ نسيت ان أحضر لك فنجان شاي...

واستطرد وهو ينهض:

ـ حقّاً يجب ان أخبرك باني سأسافر الىٰ تبريز غداً..

ويرتشف سيد تقي شايه علىٰ مهل ثم يودّع صديقه ويغادر المنزل سعيداً.

المصادر

١ ـ خواطر في حياة آيةالله البروجردي.. محمدحسين العلوي.

٢ ـ حياة آية الله البروجردي.. علي الدواني.

٣ ـ الخزائن.. أحمد النراقي.

٤ ـ خواطر آية الله.. الحرمبناهي.

٥ ـ منهاج الدموع.. علي القرني الگلبايگاني.

٦ ـ مجلة العروة الوثقىٰ.

٧ ـ لقاء مع صاحب الزمان.. آية الله الأبطحي.